نظرات وأضواء
على
القومية العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى الذين يودون مخلصين أن يعرفوا الحق وينشدون اتباعه.

إلى الذين ساروا على الطريق صادقين بعواطفهم وقلوبهم ولكن قبل استبانة الجادة الحقة وقبل اتضاح النور في صراطهم.

وإلى الذين عرفونا طريق الله وأنقذونا من وحل الجاهلية وضلال التيه وفتحوا أبصارنا لرؤية النور.

أقدم هذا البحث المتواضع راجياً من الله أن لا يحرمنا الثواب أجمعين.

راجي عفو ربه الكريم

عبد الله عزام

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلاً، وبعد:

فلطالما شغلني هذا الأمر كثيراً خاصة بعد أن أصبحت القومية زياً فكرياً رائجاً تهتف باسمه الحناجر، وتنادي به كثير من الأقلام والصحف والدوريات.

وأصبح الإنسان حائراً مع دوي هذه الأصوات والشعارات، فأخذ يتلمس طريقه ينشد الحق، ويريد الخلاص م هذا التيه الكبير، ويبحث عن مورد صاف بعد أن اختلطت الينابيع واتصلت الجداول.

ولقد طلب مني بعض الإخوة بعد أن كتبت السرطان الأحمر أن أكتب في هذا الموضوع بحثاً صغيراً أوفيه حق ولطالما تشوقت أن أرى كتاباً كتب بيد إسلامية يتتبع الموضوع من الناحية التاريخية ويوفيه حقه، مع إلقاء أضواء ع هذا الخط التاريخي والأصابع التي كانت تحرك هذا التيار وترسم بقلمها هذا الخط، ولم أعثر على كتاب واف في ا الموضوع، ولعل الظروف التي مرت بالمنطقة الإسلامية كانت تجعل الكتاب يحجمون عن هذا الموضوع، ولقد حرم أن أتتبع وباختصار شديد الخط القومي في المنطقة الإسلامية والعربية، ثم أبديت رأي الإسلام وحكمه في القو وحكم الشرع في اعتناقها والدعوة إليها، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان، وحسبي اجتهدت صادقاً وعلى الله قصد السبيل وهو ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

المؤلف

القومية العربية

(ARABIC NATIONALISM)

القومية: مصدر صناعي بإضافة ياء النسبة وتاء التأنيث إلى القوم، والقوم في الأصل مصدر قام، ثم غلب على الرجال دون النساء لأنهم قوامون على النساء.

وقوم كل رجل: شيعته وعشيرته[1].

القومية اصطلاحاً: مبدأ سياسي اجتماعي يفضل معه صاحبه كل ما يتعلق بأمته على سواه مما يتعلق بغيرها، أو هو: عقيدة تصور وعياً جديداً يجد فيه الإنسان جماعة محدودة من الناس يضمها إطار جغرافي ثابت، ويجمعها تراث مشترك، وتنتمي إلى أصول عرقية واحدة[2].

العـــرب: نسبة إلى يعرب بن قحطان أبو اليمن كلهم وهم العرب العاربة (الخالصة)، ويقابلهم العرب المستعربة الذين سكنوا بلاد العرب (الجزيرة العربية) وتكلموا العربية.

والأعرابي: البدوي، والعرب هم الذين استوطنوا القرى والمدن.

وقيل: سمي العرب عرباً لأنهم سكنوا وادي العربات (بفتح العين والراء)، ففي لسان العرب: (وأقامت قريش بعربة فتنحت بها وانتشر سائر العرب في جزيرتها فنسبوا كلهم إلى عربة)[3].

الإسلام والعـــرب

إن بلاد العرب كانت تطلق على الجزيرة العربية فقط، وعندما امتد نور الإسلام في الأرض وافتتح جند الله عز وجل من المسلمين العرب نصف الأرض في نصف قرن كان لا بد للشعوب التي دخلت في الإسلام أن تتعلم العربية حتى تؤدي شعائر عبادتها فلا بد من تعلم القرآن الكريم لأن صلاتهم لا تجوز إلا بتلاوة القرآن باللسان العربي المبين، ولا بد من حفظ الأذكار والأدعية بالعربية، ولا بد من معرفة أحاديث الرسول ﴿ﷺ﴾ فأصبحت العربية جزءاً أساسياً من حياة الشعوب الإسلامية، فأخذت تتعرب تدريجياً، فكل مسلم عربي بلغة قرآنه، وعربي بنبيه ﴿ﷺ﴾ العربي، وقبلته التي يتوجه إليها كل يوم خمس مرات واقعة في بلاد العرب، وحجه الذي يسعى إليه من استطاع سبيلا في جزيرة العرب، وبعد أن عربت الدواوين في زمن عبد الملك بن مروان (٦٥ – ٨٦ هـ) ونقلت إلى أيدي المسلمين بعد أن كانت باللغة الفهلوية (الفارسية القديمة في العراق)، وبالرومية في الشام، وبالقبطية (المصرية القديمة في العصر المسيحي)[4] فأصبحت العربية لغة الدولة والشعوب، وبازدياد الاختلاط والامتزاج بين الفاتحين العرب والشعوب المفتوحة ازداد التعريب، وتسابق المسلمون إلى تعلم العربية خاصة الموالي الذين كانوا يعيشون في بلاد العرب، ونبغ هؤلاء وفاقوا العرب الأصليين باللغة، فاستلموا القضاء، ونقلوا الحديث والتفسير، وحسبك من هذه الأسماء طاووس ومكحول وعكرمة ومجاهد من تلاميذ ابن عباس الذين نقلوا لنا دين الله، وقد سأل عمر بن الخطاب والي مكة: من أنبت بعدك على مكة؟ فقال ابن ابزي رجل من موالينا، فقال: أمّرت عليهم مولى؟ فقال: إنه أعلمنا. فقال عمر رضي الله عنه: لقد سمعت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول: **[إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين]**[5].

ثم كان أبو حنيفة من الفقهاء، سيبويه من النحاة، والبخاري وابن إسحق وابن سينا والفارابي وابن حبان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والرازي والسرخسي، وهؤلاء كلهم ليسوا من العرب أصلاً، ولكن عرّبهم الإسلام.

ثم حافظ الإسلام والقرآن على العرب والعربية من الاندثار رغم المحاولات المستميتة لمحو العربية، وتوسعت الرقعة العربية، فأصبحت تطلق على كل الشعوب التي عرّب الإسلام لسانها، وأفصح القرآن بيانها، فصارت مصر والشام (بأكملها) والعراق والشمال الإفريقي من العرب، وكان الأعاجم ينظرون إلى العرب نظرة إجلال واحترام لأنهم قادتهم وأساتذتهم ومعلموهم ومنقذوهم، فكيف حصل الانفصام النكد بين الإسلام والعرب في القرن الأخير؟

١- لسان العرب (١٢/٥٠٥) والنهاية في غريب الحديث لابن الأثير (٤/١٢٤)، والمنجد (٦٦٤). ٢- الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين ص(٢٠١).

٣- لسان العرب (١/٥٨٨). ٤- الإسلام والحضارة الغربية -محمد محمد حسين- ص(٢١٥). ٥- رواه البخاري.

الأسباب الحقيقية وراء الدعوة القومية

١- السبب الرئيسي: هو محاولة الغرب استبعاد الإسلام كرابطة وحيدة وإحلال رابطة جديدة مكانه بعد فشل الغرب في الحروب الصليبية، فأراد أن يستعمل أسلوب الفكر واللسان بدل السنان. وذلك ليسهل للغرب تثبيت أقدامه في بلادنا . خاصة بعد حملة نابليون على مصر

٢ – طموح محمد علي باشا وإبراهيم باشا إلى عمل امبراطورية قومية عربية.

٣ – التخلص من تركيا المسلمة والقضاء عليها حتى يرث الغرب ممتلكاتها .

٤ – محاولة النصارى التخلص من تركيا لأنها كانت تطبق عليهم الجزية وبعض الواجبات الاستثنائيه التي تقابل عند المسلمين دفع الزكاة والقيام بالجندية لحماية الدولة الاسلامية.

وطمعاً من المسيحيين أن يقودوا المجتمعات التي يعيشون فيها ويوجهوا دفتها ويصبحوا سادتها وعلية أقوامها.

التطور التاريخي للفكرة القومية

تعتبر حملة نابليون النقطة الأولى في بداية تحويل العرب من الاسلام إلى القومية، وقد اختمرت هذه الفكرة في ذهن نابليون على أثر المقاومة التي حركها الأزهر بنداء (الله أكبر) واقتنع الغرب بهذه الفكرة.

وخرج الفرنسيون سنة ١٩٠٤ من مصر و جاء محمد علي باشا. وكان محمد علي ضابطاً ألبانياً – لا يعرف العربية جاء مع الحملة التي أرسلها الخليفة إلى مصر لمقاومة نابليون، وكان محمد علي يتيماً طموحاً ذكياً، ولكنه كان أمياً، فكان مصاباً بعقدة النقص بسبب أميته، فأراد أن يحضر مصر ويطورها، فقضى على المماليك ونودي به حاكما على مصر .

محمد علي باشا والفرنسيون

كان محمد علي معجباً بالفرنسيين، فهو منذ صغره على صلة بفرنسي اسمه ليون (Lion) [١]. ثم استقدم إلى مصر د. (كلوت) الطبيب الفرنسي ليكون مستشاره، فأشار عليه بفكرة القومية (وقد عنيَّ كلوت بأن يطبع الطلاب في المدارس العليا التي كان يديرها على الشعور الصحيح بالقومية العربية)[٢] وبدأ محمد علي يرسل البعثات إلى فرنسا، فرجعت البعثات تحمل بذور الفكرة القومية، ومن بين هؤلاء رفاعة الطهطاوي الذي أقام في باريس ١٨٢٦– ١٨٣١ فحمل فكرة الثورة الفرنسية القومية.

إبراهيم باشا في بلاد الشام

كان محمد علي باشا يطمع في امبراطورية عربية تنفصل عن الحكم العثماني، وقد زين له هذا الأمر الغرب (الفرنسيون بالذات)، فأرسل ابنه ابراهيم باشا واحتل الشام كلها، ومكث حكم إبراهيم في بلاد الشام سبع سنوات ١٨٣٢ – ١٨٤٠ .

وقد كان لهذه السنوات أثر عميق في تغيير مجرى الأحداث في الشام ولمدة قرن ونيف.

لماذا صنع ابراهيم باشا في الشام؟

١ – ألغى الأحكام الاسلامية المطبقة على النصارى في الشام ونادى بمساواتهم بالمسلمين وكذلك فعل أبوه في مصر.

٢ – شجع الجمعيات التبشيرية ومدارسها، وأما أبوه في مصر فكان جلساؤه دائماً من السفراء والسائحين والمبشرين [٣] ،

وكان نتيجة هذا التشجيع للمبشرين في الشام:

أ- قدوم البعثات البروتستنتية (الأمريكية) وكان من بين رجالاتها :-

١ - إيلي سمث الذي مكث يعمل دائبا للنصرانية من ١٨٣٤ - ١٨٥٧م، فنقل المطبعة التي كانت للبعثة من مالطة إلى بير وبدأت تطبع بالعربية وهي أول مطبعة من نوعها في بلاد الشام، وأقام سمث هو وزوجته [١] في بيروت مدرسة للبنات وهي أول مدر في بلاد الشام من هذا النوع.

٢ - الدكتور كورنيليوس فانديك جاء طبيباً مع البعثة الأمريكية وبقي يعمل ٥٥ سنة في بلاد الشام (وربما كانت جهوده أ الجهود الفردية الأجنبية قيمة وأكثرها أثراً في التطور الثقافي في هذه البلاد)[٢].

٣ - ناصيف اليازجي: (١٨٠٠- ١٨٧١) لبناني نصراني، عمل مع البعثة الأمريكية. وفي مطبعتها مع سمث وفانديك، قام وابنه ابراهيم اليازجي بترجمة التوراة، وكان ابنه ابراهيم هو أول من أسس (جمعية بيروت السرية) ذات الطابع القومي وشعارها : من شعر ابراهيم نفسه.

لنطلبن بحد السيف مأربنـا　　　فلن يخيب لنا في جنبه أرب

وابراهيم هذا كان نصرانياً ماسونياً، عاش ما بين (١٨٤٧- ١٩٠٦)، مات في مصر و نعته المحافل الماسونية فيها، و صاحب القصيدتين اللتين تناديان بالثورة على الأتراك.

تنبهوا واستفيقوا أيها العـرب　　　لقد طما السيل حتى غاصت الركب
أقداركم في عيون الترك نازلـة　　　وحقكـم بين أيدي التـرك منتهب

والثانية:

دع مجلس الغيـد الأوانس　　　وهـوى لواحظها النواعس
أي النعيـم لمـــن يبيت　　　على فراش الذل جـالس
فالتـرك قـوم لا يفـوز　　　لديهــم إلا المشـاكس

٤ - بطرس البستاني: ١٨١٩ - ١٨٨٣، وهو لبناني كان يعمل مترجماً في القنصلية الأمريكية في بيروت، وغير دينه من مارو ى بروتستنتي بسبب صداقته مع سمث وفانديك. وظفه المبشرون مدرساً في مدرسة عبية، ترجم التوراة مع سمث واستغرق ف ترجمة عشر سنوات. أصدر قاموس (محيط المحيط) ومختصره (قطر المحيط) و(دائرة المعارف للبستاني).

أصدر في فتن عام ١٨٦٠ (بين النصارى والدروز في لبنان) مجلة اسمها (نفير سورية) يدعو إلى الوحدة القومية. أسس عا ١٨ (المدرسة الوطنية) كان يدرس هو وناصيف اليازجي فيها. وأصدر عام ١٨٧٠ مجلة (الجنان) صحيفة نصف شهرية سياس بية، - شعارها (حب الوطن من الإيمان). وأصدر صحيفتي (الجنة) و(الجنينة) [٣] .

ويعتبر اليازجي والبستاني من الرواد الأوائل لفكرة القومية العربية، فلقد قام تلاميذهم بالتنظيمات القومية التي آتت أكلها فيه . وأثمرت هذا الإقصاء لدين الله عن الحياة وتربية الرواد الذين يعتبرون القومية مثلهم الأعلى تقدم له القرابين والتضحيات.

ومن ثمار البعثة الأمريكية عدا إبراز اليازجي والبستاني أنها قامت بانشاء أكبر معهد لحضانة الفكر القومي وهو:

الجامعة الأمريكية في بيروت ١٨٦٦

وكان اسمها في البداية (الكلية السورية الانجيلية)، وكان أول رئيس لها هو دانيال بلس راهب أمريكي يحمل الدكتوراه ف وت، وبقي رئيساً للجامعة حتى عام ١٩٠٢ وخلفه ابنه هوارد بلس. وأثر الجامعة الأمريكية في المنطقة لا يوازيه أي أثر في الفكر مية. ولقد خرجت الجامعة أجيالاً من قادة بلاد الشام على مدى قرن ونيف. ومن أساتذتها المعروفين برعاية الفكر القوم لمنطين زريق الذي تخرج على يديه جورج حبش.

ب - البعثة الكاثوليكية - اليسوعية ، وقد قامت بإنشاء مطبعة حجرية ١٨٤٧ وأسست مدرسة القديس يوسف التي عرفت فيه بالجامعة اليسوعية.

ج - *العازريون*: افتتحوا كلية (عين طورة) في لبنان.

لة العرب هامش ١١٢.　　　(٣) انظر يقظة العرب ص١١٢ والاسلام والحضارة الغربية ٢٢٣.

الجمعيات القومية

ومن الأعمال التي قامت بها البعثات التبشيرية إنشاء الجمعيات التي تنادي بالفكر القومي وأهمها:

١ - جمعية الآداب والفنون عام ١٨٤٧:

أسستها البعثة التبشيرية الأمريكية وعلى رأسهم سمث وفانديك والبستاني وناصيف اليازجي. لم يمض عليها عامان حتى بلغ أعضاؤها خمسين عضوا أكثرهم من النصارى السوريين في بيروت، ولم يكن فيهم مسلم واحد ولا درزي. وبقيت الجمعية خمس سنوات.

٢ - الجمعية الشرقية عام ١٨٥٠ أسسها اليسوعيون وكان يشرف عليها الأب دبرونر.

٣- الجمعية العلمية السورية عام ١٨٥٧م:

بلغ أعضاؤها مائة وخمسين عضواً ، اشترك فيها بالاضافة إلى مؤسسيها النصارى من أتباع البعثة الأمريكية بعض المسلمين والدروز، ونالت اعتراف الحكومة بها عام ١٨٦٨.

(كان أول صوت ظهر لحركة العرب القومية هو صوت ابراهيم اليازجي أحد أعضاء الجمعية فالقى قصيدة اتخذت صورة النشيد القومي) (١) .

جمعية بيروت السورية عام ١٨٧٥:

- يقول جورج انطونيوس (يرجع أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى عام ١٨٧٥ أي قبل ارتقاء عبدالحميد العرش بسنتين حين ألف خمسة شبان من الذين درسوا في الكلية البروتستنتينية السورية -الجامعة الأمريكية- ببيروت جمعية سرية وكانوا جميعاً من النصارى، ولكنهم أدركوا قيمة انضمام المسلمين والدروز إليهم، فاستطاعوا أن يضموا الى الجمعية نحو اثنين وعشرين شخصاً ينتمون إلى مختلف الطوائف الدينية، ويمثلون الصفوة المختارة المستنيرة في البلاد، وكانت الماسونية قد دخلت قبل ذلك بلاد الشام على صورتها التي عرفتها أوربا، فاستطاع مؤسسو الجمعية السرية عن طريق أحد زملائهم أن يستميلوا إليهم المحفل الماسوني الذي كان قد أنشيء منذ عهد قريب ويشركوه في أعمالهم) (٢) .

من هذا ندرك :-

١ - أن بداية العمل القومي المنظم كان في بلاد الشام عن طريق النصارى .

٢ - أن هؤلاء النصارى من تلاميذ البستاني واليازجي أو من محبيهم وكانوا ثمرة جهود البعثة الأمريكية.

٣ - ان من بين المؤسسين ابراهيم اليازجي صاحب شعار الجمعية.

لنطلبن بحد السيف مأربنا   فلن يخيب لنا في جنبه إرب

وكذلك كان فارس نمر باشا(نصراني لبناني) وصهره شاهين مكاريوس من مؤسسيها. وهؤلاء الثلاثة من كبار الماسونيين المعروفين.

فالأيادي الماسونية - اليهودية - هي التي تبنت فكرة القومية العربية، وهي نفس الأيادي التي كانت تحرك في الوقت ذاته القومية الطورانية التي يتبناها يهود الدونمة في سالونيك وتعقد اجتماعاتهم في بيوت اليهود الايطاليين.

(وان الذي أوحى بفكرة تأسيس جمعية بيروت السرية هو رجل يسمى إلياس حبالين من بلدة ذوق مكايل، وكان استاذاً للغة الفرنسية يدرسها في الجامعة الأمريكية لطلاب صف فيهم اليازجي ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس، وكان الأستاذ معجباً بالثورة الفرنسية) (٣).

وقد كان يشك أن مدحت باشا- زعيم الماسونية وكان يكنى بأبي الأحرار - وراء تشكيل الجمعية، فقد جاء في برقية أرسلها القنصل البريطاني في حزيران عام ١٨٨٠ (ظهرت في بيروت منشورات تحض على الثورة يشك في أن مدحت هو منشؤها)(٤) . وكان

(١) يقظة العرب ١٢٠.   (٢) يقظة العرب ١٤٩.   (٣) الشعوبية الجديدة لمحمد مصطفى رمضان ص ١٥٦ نقلاً عن كتاب المجتمع العربي كلية الآداب جامعة...

مدحت أنذاك والياً على الشام.

ولكن حزم السلطان عبدالحميد ومتابعته للجمعية ومنشوراتها جمّد نشاطها، وكان أهم منشورات الجمعية هو المنشور الثا الذي صدر في ٣١ ديسمبر ١٨٨٠ وحدد مطالبهم بأربع نقاط [1].

١ – منح سوريا مع لبنان الاستقلال.

٢ – الاعتراف بالعربية لغة رسمية.

٣– رفع الرقابة عن حرية التعليم .

٤ – عدم إرسال أبناء العرب للحرب مع الأتراك خارج بلادهم.

الهجـــرة إلى القاهــــرة

كانت شخصية السلطان عبدالحميد فذة وفريدة وقد ملأ مكانه وفرض حبه على القلوب، إذ أنه كان يعيش عيشة زاهدة دو ترف ولا ترهل، مع إقصاء كل مظاهر الترف والتحلل التي وجدها في القصر، ولذا لم يستطع المبشرون وتلاميذهم أن ينشطوا ف أيامه، وجاءت فكرة الرحيل إلى القاهرة حتى تعيش الفكرة القومية في محضن الرعاية البريطانية حيث يجثم كرومر المعت البريطاني، فهاجرت العائلات النصرانية والكتاب النصارى الى القاهرة لتكون القاهرة منطلقاً لمحاربة تركيا، ولنشر الأفكار العلمان والقومية لتحل تدريجياً محل الاسلام، ولتكون رابطة عربية بدل الرابطة الاسلامية، ومن بين هذه الأسماء التي هاجرت:

ــ ابراهيم اليازجي بن ناصيف اليازجي – ماسونيان، وإبراهيم هذا نعته المحافل الماسونية في القاهرة. وأسس جري (الضياء).

ــ فارس نمر وصهره شاهين مكاريوس صاحب جريدة (المقطم) اليومية ومجلة (المقتطف الشهرية) وهما نصرانيان ماسونيان.

ــ سليم تقلا: الذي أسس الأهرام (جريدة يومية) تصدر حتى يومنا هذا.

ــ جورجي زيدان: صاحب دار الهلال وله مؤلفات كثيرة.

ــ أديب إسحق (مدير صحيفة مصر) وسليم نقاش (مدير إدارة صحيفة التجارة)، وهذان النصرانيان من الشام كانا يعملا بإرشاد جمال الدين الأفغاني وهو الذي أسس هاتين الصحيفتين [2] .

ــ روزاليوسف – جاءت من الشام نصرانية ثم تظاهرت بالاسلام وسمت نفسها فاطمة اليوسف، ولكنها أصدرت المج باسمها القديم (روز اليوسف).

ــ أحمد فارس الشدياق – ماروني اعتنق البروتستانتيه على يد البعثة الأمريكية، ثم جاء مصر وأصدر صحيفة (الجوائب)، ؛ أسلم على يد باي تونس.

الأفغاني وعبده والكواكبي

ولا بد هنا أن نشير إلى ثلاثة من الدعاة ممن كانوا يتزيون بزي العلماء وهم مشهورون في العالم كله كدعاة إلى الوحد الاسلامية، مع أنهم كانوا في الوقت نفسه يهاجمون تركيا ويسعون إلى هدم صرح الخلافة ، وهم:

الأفغاني: وكان يحتضن كثيراً من النصارى واليهود، وكان طبيبه الخاص اسمه هارون يهودياً ، وقد حضر موته هو ونصران آخر اسمه (جورجي كونجي)، وكان ينزل في لندن ضيفاً على مستر (بلنت) البريطاني صاحب كتاب (مستقبل الاسلام)، وعندما حاو الخليفة منع الأفغاني من الخروج من تركيا توسط له السفير البريطاني وخرج. وكان الأفغاني رئيساً لمحفل الشرق الماسوني [3] .

أما محمد عبده: فكان صديقاً حميماً لكرومر، وصرح كرومر بأن الشيخ عبده سيبقى مفتياً لمصر مادامت بريطانيا فيها، وكا

(١) يقظة العرب ص ١٥٥ (٢) تاريخ الأستاذ الامام ١/٥١ انظر كتاب الاسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين ص ٦٦.

٣) كتاب الاسلام والحضارة الغربية فصل الافغاني ومحمد عبده وكتاب الفكر الاسلامي المعاصر للتوبة.

ماسونياً ، ومن رواد صالون الأميرة نازلي فاضل، ومن تلاميذه: أحمد لطفي السيد العلماني الذي أعلن كفره البواح في صحيفته (الجريدة) وسعد زغلول . وقاسم أمين (صاحب كتاب تحرير المرأة)، وهؤلاء كان لهم أثر عميق في مجرى الأحداث في مصر [١] .

وعبدالرحمن الكواكبي ١٨٤٩ - ١٩٠٢: وأصدقاؤه وتلاميذه من المسلمين واليهود والنصارى . كانت دروسه في مقهى (سبلنددبار)، نادى بمبايعة خليفة عربي في كتابه (أم القرى)، وله كتاب آخر اسمه (طبائع الاستبداد) ، دعا إلى المساواة بين الأديان لتحقيق التماسك القومي . ويقول (دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمة سواء، ألا وهي فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء)، (هذه أمم اوروبا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري) [٢] .

هؤلاء الثلاثة كانت أفكارهم تمهيداً للعلمانية، فقد كانت آراؤهم قنطرة عبرت عليها العلمانية إلى العالم الاسلامي كما يقول البرت حوراني[٣] .

وحطم الحاجز النفسي بين الكافرين والمسلمين، وأصبحت نفوس المسلمين قابلة لتقبل الأفكار الواردة وعلى رأسها القومية، يقول البرت حوراني (ومن الحق أن الذي يقرأ لمحمد عبده في مناظراته مع رينان ومع فرح انطون يحس أنه كان يريد أن يقيم سداً في وجه الاتجاه العلماني يحمي المجتمع الاسلامي من طوفانه، ولكن الذي حدث هو أن هذا السد قد أصبح قنطرة للعلمانية عبرت عليه إلى العالم الاسلامي لتحتل المواقع الواحد تلو الآخر) [٤] .

ثم جاء تلاميذ محمد عبده ليعمقوا هذا التيار وليقودوا المجتمع بعلمانيتهم.

فمثلاً لطفي السيد: عمق الوطنية الاقليمية وتزعم الدعوة الى التاريخ الفرعوني.

وجاء سعد زغلول : وسلّمه كرومر وزارة المعارف لينادي بالاتجاه الوطني الاقليمي الفرعوني على الصعيدين السياسي والاجتماعي، ويقول كرومر بأنني سلمته وزارة المعارف لأنه من تلاميذ الشيخ عبده[٥] .

وجاء قاسم أمين: ليوضح العموميات ويفصل مجمل ما كان يدعو إليه الشيخ عبده، وينادي بخلع الحجاب ونزع الحياء من حياة المرأة حتى أن كتاب (تحرير المرأة) نال إعجاب الشيخ عبده، وقد اطلع على مسودته هو وتلميذه لطفي السيد في جنيف سنة ١٨٩٧ كما ذكر ذلك لطفي السيد وقاسم أمين [٦] .

ولذا تعزى الفصول الفقهية في الكتاب إلى الشيخ محمد عبده -كما يظن- لأن قاسم أمين لا علم له بهذه القضايا.

ويذكر في هذا المجال إسماعيل مظهر صاحب (مجلة العصور) وهو صهر لطفي السيد، وكذلك لا بد من الاشارة إلى إصبع من أصابع التخريب وهو عبدالعزيز فهمي -صديق لطفي السيد الحميم، وصديقهم الثالث طه حسين الذي فصل من الجامعة بسبب كفره الصريح في (الشعر الجاهلي)، فاستقال لطفي السيد من الوزارة (وكان وزيراً للمعارف) احتجاجاً على فصل طه حسين من الجامعة المصرية[٧] .

هذه المجموعة قد فرّغت الشعب المصري من الاسلام لتحل محلّه أفكاراً جديدة من الفرعونية والعلمانية والوطنية اللادينية.

وقد تكون الصداقة الحميمة بين هؤلاء وبين الشيخ محمد عبده إن هي إلا محاولة لتقريب هذه الفئة من الاسلام، ولكنه لم يستطع بعد أن تساهل -من أجل جذبهم- في كثير من القواعد الشرعية التي تحدد الولاية والعداوة والصداقة والمقاطعة، وأفتى بكثير من الفتاوي من أجل رفع الحواجز بينه وبين كرومر من جهة، وبينه وبين هذه الفئة من جهة أخرى، مثل الفتوى الترنسفالية، وفتواه في المرأة والطلاق والتعدد، بالاضافة إلى تفسيره كثيراً من الآيات الغيبية في القرآن تفسيراً يكاد يخرجها عن اللسان العربي ويلغي مضمونها بالكلية.

جاء في تقرير كرومر سنة ١٩٠٦ المقدم إلى الحكومة البريطانية عن حزب محمد عبده (... وهؤلاء راغبون في ترقية مصالح

---

(١) كتاب الاسلام والحضارة الغربية فصل الأفغاني ومحمد عبده وكتاب الفكر الاسلامي المعاصر للتوبة.

(٢) طبائع الاستبداد ص ١١٢- ١١٣ انظر العلمانية لسفر الحوالي ص ٥٨٠ وانظر يقظة العرب ص ١٧٢.

(٣) الفكر العربي المعاصر / البرت حوراني ص ١٤٤ وانظر كتاب الاسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين ص ٨٣.

(٤) [illegible]

مواطنيهم واخوانهم في الدين، ولكنهم غير متأثرين بدعوى الجامعة الاسلامية، ويتضمن برنامجهم - إن كنت فهمته حق الفهم التعاون مع الأوروبيين لا معارضتهم في إدخال الحضارة الغربية إلى بلادهم)[1] .

ويقول كرومر (إني أشك كثيراً أن صديقي محمد عبده كان إلا إدرياً Agnostic) [2] .

ويقول صديقه بلنت - الإنجليزي - (أخشى أن أقول أن محمد عبده - بالرغم من أنه المفتي الأعظم - ليس له من الثـ بالإسلام أكثر مما لي من الثقة في الكاثوليكية)[3] .

وأصدق كلمة في محمد عبده وشيخه كلمة الشيخ مصطفى صبري شيخ الاسلام (فلعل الشيخ محمد عبده وصديقه أو شيـ جمال الدين أرادا أن يلعبا في الاسلام دور لوثر وكلفن - زعيمي البروتستانت - في المسيحية فلم يتسن لهما الأمر بتأسيس دـ حديث للمسلمين، وإنما اقتصر سعيهما على مساعدة الالحاد المقنع بالنهوض والتجديد)[4] .

ويقول شيخ الاسلام مصطفى صبري - كذلك- (أما النهضة الاصلاحية المنسوبة إلى محمد عبده فخلاصتها أنه زعزع الأزهـ من جموده على الدين، فقرب كثيراً من الأزهريين إلى اللادينين خطوات، ولم يقرب اللادينين إلى الدين خطوة، وهو الذي أدخـ الماسونية في الأزهر بواسطة شيخه جمال الدين الأفغاني. كما أنه هو الذي شجع قاسم أمين على ترويج السفور في مصر) [5] .

الدعوة القومية في بداية القرن العشرين

استطاعت شخصية عبدالحميد الفذة أن تجمد الدعوة إلى القومية خاصة وأنه رفع شعار (يا مسلمي العالم اتحدوا).

وقبل نهاية القرن التاسع عشر عقد مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ الصهيوني وقرروا انشاء وطن لليهود في فلسطين، وزار هرتز السلطان عبدالحميد مرتين وعرض عليه مبلغ (١٥٠) مليون جنيه، وانشاء أسطول عثماني، والدفاع عن سياسته في أوربا وأمريكا وسداد كثير من ديون الدولة العثمانية مقابل السماح لليهود بشراء بعض الأراضي في فلسطين.

وكان جواب السلطان عبدالحميد قاطعاً بأن(قطع عضو من أعضائي أهون عليّ من أن تقطع فلسطين من الدولة العثمانية).

فبدأت أجهزة البث تعمل ليل نهار ضد السلطان عبدالحميد، وقد أصبحت القاهرة وباريس أهم مراكز التآمر على السلطان وقد أشرنا قبل قليل كيف عملت جميع القوى -تقريباً- في القاهرة ضد السلطان - حتى الدعاة المعروفون أمثال الشيخ جمال الديـ ومحمد عبده - على السلطان عبدالحميد. وتجمع في القاهرة كذلك شباب تركيا الفتاة - وهم من أعداء الله وأدعياء القومـ الطورانية- تحركهم أصابع اليهودية في سلانيك وإيطاليا وأسبانيا.

وأما دعاة القومية العربية فبالاضافة إلى نصارى الشام في القاهرة الذين تولوا توجيه الفكر في مصر كلها فهناك في المركـ الآخر في باريس [6] بعض النصارى السوريين ومنهم: نجيب عازوري.

وهو نصراني سوري ألف سنة ١٩٠٤ جمعية (عصبة الوطن العربي) في باريس. وكان هدفها الذي أعلنته تحرير الشام والعراق من السيطرة التركية، ونشر سنة ١٩٠٥ كتاب (يقظة الأمة العربية) باللغة الفرنسية، وأصدر بالاشتراك مع الكتاب الفرنسيين مجلـ (الاستقلال العربي) صدر العدد الأول منها في أبريل سنة ١٩٠٧ ، وتوقفت بعد إعلان دستور سنة ١٩٠٨ .

يقول ساطع الحصري (إن القومية ابتدأت بنجيب عازوري الذي يضع آماله العربية السورية في فرنسا أولاً وفي إنجلترا ثانياً وكانت أعمال نجيب عازوري تمهيداً لمؤتمر باريس سنة ١٩١٣.

مؤتمر باريس سنة ١٩١٣:

يكاد كثير من كتاب القومية العربية يعتبرون مؤتمر باريس أساساً للقومية الحديثة، وكان عدد المشتركين ٢٤ عضواً نصفهم مـ المسيحيين ونصفهم من أبناء المسلمين، فيقول عنه أنيس الصايغ بانه كان خالياً من المطالبة بالاستقلال حتى لا تحرج بعض الدول

(١) الاسلام والحضارة الغربية ص ٧٩.
(٢) الاسلام والحضارة الغربية ص ٧٩ .
(٣) مذكرات بلنت My Dairies ج ١/ ٣٤٦ (٨ يناير سنة ١٩٠٠).
(٤) كتاب شيخ الاسلام - مصطفى صبري - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين (٤) أجزاء ج ١ / ١٤٤ وانظر كتاب الاسلام والحضارة الغربية ص ١٠٧
(٥) الاتجاهات الوطنية لمحمد محمد حسين ج ٢/ ٧٥-٨٥.
(٦) يقظة العرب ص ١٧٤.

الأوروبية التي كانت تشجع الحركة القومية وتمدها بالأموال. وقد صرح الزهراوي رئيس المؤتمر لمراسل الطان الفرنسية بأنه ليس للمؤتمر علاقة بولايات العرب غير العثمانية – أي الشمال الافريقي –، لأن فرنسا تشرف على المؤتمر وهي تحكم الشمال الافريقي، وشكر وزارة الخارجية الفرنسية، ورفض المؤتمرون إشراك مصر في المؤتمر، وقد طالبوا بجعل اللغة العربية رسمية في البلاد العربية. واضطرت الحكومة الاتحادية أن تفاوضهم وترضيهم بإدخال ٣ وزراء عرب وخمسة من الولاة عرب كذلك في سلك الدولة .

عوامل هامة في تطور الحركة القومية

هنالك عوامل هامة كان لها أثر كبير في تأجيج نار القومية العربية في الربع الأول من القرن العشرين، ومن أهم هذه العوامل:

١ – استلام جمعية الاتحاد والترقي الحكم في تركيا بعد اسقاط السلطان عبدالحميد في ٢٧ نيسان سنة ١٩٠٩، وبدأت المناداة بالقومية الطورانية التركية، ومن فلاسفتها خالدة أديب –اليهودية – التي أصبحت فيما بعد وزيرة للمعارف. وكذلك ضياكوك ألب وهو تلميذ اليهودي دوركايم وتلميذ اليهودي الآخر موبزألب (Moizalp) ومن المعلوم أن قادة الاتحاد والترقي كلهم على الاطلاق من الماسون، وليس منهم واحد مسلم الأصل أو تركي العرق. فأنور بولندي، جاويد –يهود دونمة–، كراسو – يهودي أسباني... وبدأت جمعية الاتحاد والترقي بفرض عملية التتريك على جميع المحافظات العربية وغيرها. ففرضت التركية في الدواوين والمدارس والمناهج.

وبدأت عملية التتريك كذلك في أجهزة الدولة، وقد ظهر هذا واضحاً في انتخابات مجلس النواب (المبعوثان) الذي انتخب على أثر إعلان الدستور سنة ١٩٠٨، فأشرفت جمعية الاتحاد والترقي على الانتخابات لتكون النتيجة في جانب الجنس التركي، فكانت النتيجة أن نجح ١٥٠ من الاتراك و ٦٠ من العرب، بينما العرب متفوقون في عدد السكان بنسبة ٥ : ٢.

وفي غمرة الفرحة بتكبيل أيادي السلطان عبدالحميد أنشئت (جمعية الإخاء العربي العثماني) في ٢ أيلول سنة ١٩٠٨ بعد الدستور بشهر، فعاشت هذه الجمعية ثمانية أشهر ثم حلتها الجمعية الاتحادية.

وعملية التتريك الجبري على يد يهود الدونمة أدى إلى ردود فعل عنيفة لدى العرب بإنشاء الجمعيات السرية والعلنية .

٢ – تشكيل الجمعيات العلنية والسرية التي تنادي بالقومية العربية، وتنادي بفصل الدول العربية عن الأتراك، ولو على الأقل الحكم الذاتي في داخل الدولة العثمانية يكون للعرب إدارة أمورهم الداخلية من تعليم واقتصاد وثقافة، ومشاركة الدولة العثمانية في الأمور الخارجية كالدفاع وغيرها.

وقد تشكلت عدة جمعيات منها:

أ– العلنية: منها:

١ – جمعية المنتدى الأدبي في إستانبول .

٢ – حزب اللامركزية الإدارية العثماني، وقد تأسس في القاهرة سنة ١٩١٢.

ب– الجمعيات السرية: منها:

١ – : الجمعية القحطانية: أسسها عزيز المصري، وكان أحد الضباط البارزين في الجيش، ومن أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، واشترك في الأحداث سنة ١٩٠٨– ١٩٠٩ ضد السلطان عبدالحميد . وكان يحاضر في كلية الأركان، وهدف الجمعية تحويل الدولة العثمانية إلى مملكة ذات تاجين (تركي وعربي) مثل الأمبراطورية النمساوية (النمسا مع المجر) . وكان الضابط (سليم الجزائري) يعين عزيز المصري في إدارة الجمعية.

٢ – جمعية (العربية الفتاة) أسست في باريس سنة ١٩١١ على يد سبعة من أبناء المسلمين منهم عوني عبدالهادي وتوفيق التميمي، وهذه الجمعية مهدت لمؤتمر باريس سنة ١٩١٣.

٣– جمعية (العهد) أسسها عزيز المصري سنة ١٩١٣ وكل أعضائها من العسكريين عدا اثنين أحدهما عادل أرسلان . ورغم كل البطولات التي نسبت إلى عزيز المصري إلا أن شخصيته لا زالت غامضة لديّ، وفي سنة ١٩١٤ اعتقل عزيز المصري في استانبول واتهم بتسليم برقة للطليان، وتدخل السفير البريطاني في مصر (كتشنر) لإنقاذه، وكتبت التايمز أربع مقالات افتتاحية تدافع عنه،

قامت ضجة كبرى في العالم العربي عندما حكم عليه بالاعدام، ولكن بالضغط البريطاني أخلي سراحه ووصل في ٢١ نيسان سنة ١٩١٤ إلى مصر مع استقبال شعبي رائع .

٣- تولية جمال باشا والياً على بلاد الشام، وكانت خالدة أديب اليهودية أمينة سره. وقد اضطر جمال باشا أن يهادن العرب ويحسن إليهم في بداية الحرب الكبرى لئلا ينضم العرب إلى معسكر الحلفاء ضد تركيا، وقد استلم جمال باشا قيادة الجيش الرابع في سوريا، وقد كان جمال باشا يحس بوجود التجمعات القومية السرية في بلاد الشام وكان يعلم أن العرب ضاقوا ذرعاً بتصرفات الاتحاديين وبتعصبهم لتركيا. فكان العرب يبحثون عن مخرج، واتصل زعماؤهم بفرنسا. مما جعل جمال باشا يقتحم السفارة الفرنسية في كل من بيروت و دمشق ويضبط وثائق فيها تثبت اتصال قادة التنظيمات والجمعيات العربية بفرنسا وتنادي بانفصال سوريا عن العثمانيين، إلا أن جمال باشا أراد أن يغض الطرف عن القضية طمعاً في وقوف العرب لجانب تركيا في الحرب.

وبعد إحساس جمال بنية الشريف حسين بدخول الحرب ضد تركيا والى وجانب بريطانيا استشاط جمال باشا غضباً وأمر بإعدام ١١ شخصية عربية في ٢١ آب سنة ١٩١٥ بعد المحاكمة العسكرية في عاليه.

وفي (٦) أيار سنة ١٩١٦ شنق ٢١ شخصية عربية أخرى منهم عبدالحميد الزهراوي (رئيس مؤتمر باريس وعضو مجلس الأعيان التركي) وسليم الجزائري مساعد عزيز المصري في الجمعية القحطانية، وكانت المحاكمة كذلك للمرة الثانية في عاليه .

ولقد أحدثت هذه الاعدامات هزة عنيفة في العالم العربي، ولقد نفذ جمال باشا الاعدام بعد توسط الشريف حسين وابنه فيصل، إلا أنه لم يصغ إليهما. وقد كان الأمير فيصل بن الحسين آنذاك في دمشق فرمى كوفيته على الأرض وداسها وقال (طاب الموت يا عرب)[1] .

٤ – العامل الرابع: دخول الشريف حسين الحرب العالمية بجانب بريطانيا ضد تركيا. فلقد بقي الشريف حسين في تركيا ستة عشر عاماً إذ كان السلطان عبدالحميد يخشى منه، وبعد إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ اختارته جمعية الاتحاد والترقي ليكون أميراً لمكة، وعارض عبدالحميد في هذا التعيين[2].

وقد كان اعلان الدستور في ٢٤ تموز سنة ١٩٠٨ بعد مؤامرة طويلة المدى يديرها أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين كان معظمهم من اليهود الدونمة أو الأتراك المتهودين الذين تلعب بهم أصابع الماسونية في محافل سالونيك، وقد كانت الجمعية تعقد اجتماعاتها في بيوت اليهود المنتمين الى الجنسية الايطالية .

لقد كتب ستون وستون يقول [3] .

(إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير اسلامية، فمنذ تأسيسها لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من اصل تركي صاف، فأنور باشا هو ابن رجل بولندي مرتد وكان جاويد من الطائفة اليهودية المعروفة (دونمة)، وكراسو من اليهود الأسبان القاطنين في مدينة سالونيكا، وكان طلعت باشا من أصل غجري اعتنق الاسلام ديناً، أما أحمد رضا أحد زعمائهم في تلك الفترة فكان نصفه شركسيا ونصفه غجرياً الى جانب كونه من أتباع مدرسة كونت الفلسفية).

ويضيف ستون وتسون قائلاً إن أصحاب العقول المحركة وراء الحركة كانوا يهوداً أو مسلمين من أصل يهودي، وأما العون المالي فكان يجيئهم عن طريق (الدونمة) ويهود سالونيكا الاثرياء.... كما أنه كانت تأتيهم معونات مالية من الرأسمالية الدولية – أو الشبيهة بالدولية – من فينا وبودبست وبرلين وربما من باريس ولندن).

ويقول هربرت آبري:

(كان يهود سالونيكا ويعرفون (بالدونمة) – أي المرتدون- شركاء الثورة التركية الحقيقيين ، وهؤلاء هم من العرق اليهودي، ولكن معتقدهم قد لا يكون يهودياً أصلاً. والاعتقاد الشائع بين الناس هو: أنهم مسلمون بالاسم، أما بالفعل فإنهم من أتباع توراة موسى... وفي تلك الفترة التي نحن بصددها لم يعرف أحد من الناس شيئا عنهم ، سوى قلة من العلماء المختصين بدراسة الشرق الأدنى، ولم يكن أحد من الناس يجرؤ أن يتنبأ أن هذه اليهودية المعروفة (بالدونمة) ستلعب دوراً رئيسياً في ثورة كان لها نتائج خطيرة

(١) انظر يقظة العرب ٢٧٦- ، ٢٨٥ . (٢) يقظة العرب ص ١٧٨ .

(٣) انظر الطول المستوردة للقرضاوي ص ١٦٥ نقلاً عن كتاب نشوء القومية العربية لزين زين ص ٨٦- ٨٧

في سير التاريخ [١].

وقد كان الشريف حسين يتلمس المناسبة للتخلص من الحكم التركي، خاصة وأنه أحس أن الاتحاديين سنة ١٩١٤ يريدون التخلص منه. وكان عبدالله بن الحسين آنذاك نائباً في البرلمان التركي، وقد اتصل بكتشنر (المعتمد البريطاني في مصر) وروناﻟﺪستورز المستشار الشرقي في دارالاعتماد البريطاني. وأطلعه على النفور الشديد بين أبيه وبين الأتراك وسأله عن إمكانية وقوف بريطانيا بجانب الشريف فيما إذا أعلن الشريف الحرب على تركيا. إلا أنه لم يلق أي تشجيع منهما، وقال كتشنر: ليس من المحتمل أن تقف بريطانيا بجانب أبيك [٢].

(وكان الأمير عبدالله نفسه عضواً في إحدى الجمعيات السرية، وكان مؤمنا بفوائد التفاهم الانجليزي العربي متحمساً له) [٣].

ونشبت الحرب الكبرى في آب سنة ١٩١٤، وكان عبدالله متحمساً لاعلان الحرب على تركيا، بينما كان الأمير فيصل يرى الوقوف معها. وفي سنة ١٩١٥ زار فيصل دمشق واستانبول، وفي دمشق انضم إلى جمعية (العربية الفتاة) وأقسم على نصرتها. وأعلن الشريف الحرب على تركيا يوم الاثنين ٥ حزيران سنة ١٩١٦ (وسبحان ربي! كانت هزيمة العرب في ٥ حزيران يوم الاثنين سنة ١٩٦٧) ، ومن جانب قبر حمزة بن عبدالمطلب بالمدينة أعلن الحرب بعد أن وعدته بريطانيا باستقلال بلاد العرب وبتتويجه ملكا عليها، وكان كتشنر قد أصبح وزيراً للحربية البريطانية، واستلم مكماهون معتمداً بريطانياً في مصر، وحدثت المكاتبات المعروفة بينه وبين مكماهون، و وعدوه بملك البلاد العربية بعد استقلالها.

واندفع الشريف حسين بكل طاقته يؤجج نار الحمية العربية ضد الأتراك، وهزم الأتراك. وحصلت اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم البلاد العربية بين بريطانيا وفرنسا، وأعطيت فلسطين لليهود بوعد بلفور، وكان الجزاء الجميل للشريف حسين أن نفته بريطانيا ست سنوات وسلبت ملكه، ولقد كانت الصدمة عنيفة لأعصاب الشريف حتى داهمه الفالج وذاب جسده حسرة وألماً، وكان يصب جام غضبه طيلة حياته على مكماهون ولويد جورج – الوزير البريطاني المعروف.

يقول جورج انطونيوس [٤] :

(لقد زرته قبل موته بأشهر سنة ١٩٣١م ، وقد قلصه الفالج، وابيض وجهه الوسيم من شحوب الموت ... فقال لي: الانجليز يا ولدي قوم شرفاء في أقوالهم وأفعالهم، في السراء والضراء، أقول: شرفاء، ماعدا صاحب السعادة الموقر الهمام لويد جورج فهو أشبه بالبهلوان وبالثعلب. أقول: ثعلب، حاشا مقامك رحم الله صاحب السعادة كتشنر).

كانت هذه النتيجة الأسيفة الأليمة للتعاون مع الانجليز، وصدق الله العظيم **(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين بل الله مولاكم وهو خير الناصرين)** [٥].

ولقد حذر بعض الصادقين العقلاء الشريف حسين من مغبة غدر الانجليز ومن هذه الفاجعة المتوقعة، فقد كتب شكيب أرسلان [٦] إلى الشريف عندما بلغه عزم الشريف لغزو سوريا مع جيوش الحلفاء قائلاً (أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء انجلترا على جزيرة العرب وفرنسا على سوريا واليهود على فلسطين؟).

يقول لورنس في أعمدة الحكمة السبعة (لقد كنت أعلم أننا اذا كسبنا الحرب فإن عهودنا للعرب ستصبح أوراقا ميتة، ولو كنت ناصحاً شريفاً للعرب لنصحتهم بالعودة إلى بيوتهم. لقد كان قادة الحركة العربية يفهمون السياسة الخارجية فهماً عشائرياً بدوياً، وكان البريطانيون والفرنسيون يقومون بمناورات جريئة اعتماداً على سذاجة العرب وضعفهم وبساطة قلوبهم وتفكيرهم ولهم ثقة بالعدو... إنني أكثر ما أكون فخراً أن الدم الانجليزي لم يسفك في المعارك الثلاثين التي خضتها، لأن جميع الأقطار الخاضعة لنا لم تكن تساوي في نظري موت انجليزي واحد) .

ويقول وايزمان (لقد قدم لنا لورنس خدمات جليلة)، هذا هو لورنس الذي كانوا يسمونه – ملك العرب غير المتوج.

وصلت جمعية الاتحاد والترقي الى الحكم واستراحت من الغول الرهيب الذي طالما أقض مضجعها وأرق أجفانها (عبدالحميد)، وأصبحت تركيا الاسلامية دمية في يد اليهودية تحركها كيف شاءت وأنى أرادت.

(١) [illegible] ١٦٥ [illegible] ٢٠٧ – ٢٠٨ (٢) [illegible] (٣) [illegible]

وأصبحت مقاطعاتها حمى مستباحاً للذئاب الغربية من أعداء الاسلام، وأصبح هذا المارد الجبار (الدولة العثمانية) يؤكل شلـ شلواً، وكما قال الشاعر:

رب في الفناء علوا وسفلاً   واراني أموت عضوا فعضوا

فابتلع الغرب أولاً دول البلقان النمسا والمجر والبوسنة والهرسك في تشرين الأول سنة ١٩٠٨ (أي بعد تسلم الاتحاد والترقـ زمام الامور) وبعد اعلان الدستور بشهرين فقط، وانفصلت بلغاريا، واعتدت ايطاليا على ليبيا في خريف سنة ١٩١١ ثم نشبت الحر البلقانية سنة ١٩١٢، وفي هذه السنوات القليلة فقدت الدولة العثمانية جميع ولاياتها في اوربا (ماعدا تراقيا الشرقية) [1] ، وفقدت ذا الجزء من ليبيا الذي يتألف من ولايتي طرابلس الغرب وبني غازي -، لقد انسحبت تركيا من ليبيا بمؤامرة خيانية مكشوفه لا تخفـ على كل ذي عينين، ولا يفوتنا أن نذكر أن اليهود الايطاليين هم اساتذة المحافل الماسونية في سالونيك، وفي بيوت هولاء اليهو الايطاليين كانت تعقد اجتماعات جمعية الاتحاد والترقي، فليس كبيراً أن تعطي جمعية الاتحاد والترقي ليبيا هدية متواضعة الـ ايطاليا كرد جميل على صنيعهم السابق الكبير.

وفضلاً عن هذه الخسارة فقدت كريت، وكانت ميزانية تركيا تنوء بأعباء النفقات العسكرية.

القومية بعد الحرب الاولى

تعتبر وقفة العرب بجانب الحلفاء ضد تركيا المسلمة نقطة تحول كبرى في الفكر القومي والتجمع على أساس القومية. إذ لـ يكن الانجليز يحلمون في يوم من الأيام أن يقف العرب بجانبهم ككفار ضد بني دينهم وعقيدتهم.

يقول لورنس [2] (رجل المخابرات البريطاني وملك الصحراء العربية كما يسمونه):

(وأخذت أفكر طيلة الطريق إلى سوريا وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية؟ وهل يغلب الاعتقاد الوطنـ المعتقدات الدينية؟ وبمعنى أوضح: هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والالهام وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلـ الأعلى الوطني؟).

ويعتبر الغرب هذا الموقف نقطة تحول الى مرحلة جديدة في التفكير القومي.

كتبت الايكونومست في حزيران سنة ١٩٦٢ تحت عنوان (الاسلام ضد القومية) [3] مايلي:

(لقد وضع العرب منذ الحرب العالمية الأولى القومية في المكان الأول حين قاتلوا بجانب الانجليز -الكفار - من أجل التحرر مـ المسلمين الأتراك. وباستثناء البقية الهزيلة من الاخوان المسلمين فليس هناك في العالم العربي اليوم أناس ذوو تفكير سياسي يضعو مجتمع الدول الاسلامية فوق قوميتهم العربية).

ولكن بعد الحرب الأولى وإن كانت التجربة القومية مريرة إلا أنه برز عامل جديد وهو: جثوم الاستعمار بثقله على كامل العالـ العربي، وأصبح هذا العامل وتراً جديداً يعزف عليه دعاة القومية ومفكروها، خاصة بعد ازدياد الهجرة اليهودية إلى فلسطين وقيا ثورة سنة ١٩٣٦ الفلسطينية.

فهناك نقاط بارزة ما بين الحربين الأولى والثانية أدت الى ازدياد التفكير القومي أهمها:

١- الاستعمار البريطاني والفرنسي وقد نقل معه:

أ- العلمانية (اللادينية) إلى أجهزة الدولة، ورفع الطبقة المهزقة اجتماعياً، المتفلتة أخلاقياً، المستعدة للنفاق وإيقاد البخو وإشعال الشموع للحاكم الجديد، وأصبحت هذه الطبقة هي المستعمر الجديد وإن كانت من أبناء المنطقة.

ب - المناداة بالأفكار القومية كبديل للاسلام وكأساس للتفكير والتجمع والتنفير من الاتجاه الديني، وأخذ العبرة من التاريـ الأسود المرير لرجال الدين في العصور الوسطى في أوربا.

ج - أصبح نغم التحرر من الاستعمار مادة دسمة للطبقات الناقمة على الاسلام والتي تريد أن تجعل من بعض فترات الحكـ

---

(١) انظر يقظة العرب لجورج انطونيوس ص ١٨١.   (٢) مجلة المجتمع العدد ١٣٣ سنة ١٩٧٩ / د. ابراهيم..   (٣) الشعوبية الجديدة لمحمد مصطفى رمضان ص ٥١.

التركي صورة للاسلام الذي يمثل الجمود والتأخر والانحطاط!؟؟

٢ – أسقاط الخلافة على يد مصطفى كمال أتاتورك وما تبع ذلك من تفكير جدي بانشاء تنظيم حركي اسلامي لإعادة الخلافة وقيام حركة (الاخوان المسلمين) على يد حسن البنا.

٣ – بروز التفكير القومي على شكل تنظيمات يقودها المسيحيون، وبرز حزب البعث، والقوميون العرب، والقوميون السوريون على السطح، وكانت الجامعة الأمريكية محضناً دافئاً لكثير من هذه الأفكار.

حزب البعث العربي الاشتراكي

تكون حزب البعث العربي الاشتراكي من حزبين:

١- **حزب البعث العربي**: وقد أسسه الأرسوزي وعفلق.

٢ - **الحزب العربي الأشتراكي** : الذي أسسه سنة ١٩٣٨ عثمان الحوراني، ثم آلت قيادته إلى أكرم الحوراني، وقد انضم أكرم الحوراني سنة ١٩٣٦ إلى الحزب السوري القومي وانسحب منه سنة ١٩٣٨ لينضم إلى حزب الشباب العربي الاشتراكي.

وفي ١٩٥٢/١/٢٦ انضم الحزبان الأول والثاني فكونا حزب البعث العربي الاشتراكي.

حزب البعث العربي

اختلف في المؤسس، فمنهم من قال ميشيل عفلق وصلاح والبيطار، ومنهم من قال زكي الأرسوزي، إلا أن حركة ٢٣ شباط التي عملها صلاح جديد النصيري سنة ١٩٦٦ في سوريا أحلت الارسوزي أباً روحياً للحزب، والبعث هو وارث (عصبة العمل القومي) وهي عبارة عن نواة تنظيمي كل من عفلق والأرسوزي، وقد بقيت هذه العصبة من ١٩٣٢-١٩٣٩.

سنة ١٩٣٩ انسحب الأرسوزي منها وشكل الحزب القومي العربي) [١] .

زكي الأرسوزي: رجل نصيري، ملحد، لا يتكلم العربية متأثر بمباديء الثورة الفرنسية وبالنازية خاصة كتاب نيتشه (هكذا تكلم زرداشت عن موت الإله ونشوء الإنسان السوبرمان)، بدأ يتعلم العربية بعد سنة ١٩٤٠، وكان الأرسوزي يرى الجاهلية العربية مثله الأعلى، ويعتبرها المرحلة العربية الذهبية .

يقول سامي الجندي (ناقشته سنة ١٩٤٦ بالقرآن فعاب عليّ نزعتي الدينية) [٢] .

مباديء حزب البعث

المنقولة عن مبادئ الحزب القومي الذي شكله الأرسوزي سنة ١٩٣٩ رمزه النمر.

١- العرب أمة واحدة.

٢ – للعرب زعيم واحد يتجلى من إمكانات الأمة العربية يمثلها ويعبر عنها.

٣ – العروبة وجداننا القومي، مصدر المقدسات، عنه تنبثق المثل العليا، وبالنسبة إليه تقدر قيم الأشياء.

٤- العربي سيد القدر ، وفسرها الارسوزي مستشهداً بالانجيل (لا تسقط شعرة من رؤوسكم إلا بأمر أبيكم الذي في السموات).

يقول الجندي [٣] :

(وفي ١٩٤٠/١١/٢٩ كنا في غرفة فقال الأرسوزي: أرى أن نؤسس حزباً نسميه حزب البعث العربي).

أصبحت مبادئ الحزب القومي هي مبادئ حزب البعث العربي هي هي [١] .

ويقول سامي الجندي:

(كنا عصاة تمردنا على كل القيم القديمة، أعداء لكل ماتعارف عليه البشر، ألحدنا بكل الطقوس والعلاقات والأديان) [٢] ، (اتهمنا بالالحاد وكان ذلك صحيحاً أيضاً رغم كل ما زعم البعثيون فيما بعد من مزاعم التبرير) [٣].

أما مشيل عفلق

فكان متأثراً بنتشه واندرية جيد Andray Geed، أعطاه الأول الثورة والثاني الأسلوب، وغذيا فيه القلق الذي وسم حياته السياسية بالتأرجح والتردد، كان عفلق كسولاً في مظهره، كان الحزب تعبيراً عن انسانيته، فتجلت في الحزب منذ الأيام الأولى مواهبه وضعفه، وفي عفلق طيب الفنان وعصبيته وقرفه وسوء ظنه، إن تناقض عفلق قتل الفنان ولم ينقذ السياسي [٤].

في آذار سنة ١٩٤٩ جاء حسني الزعيم قايده البعث، ثم اختلفوا فالقى بمشيل عفلق في السجن، فكتب مذكرة استعطاف لـ فخرج، ثم جاء الحناوي بعد حسني الزعيم فاختار ميشيل عفلق وزيراً للمعارف، فاغتنمها فرصة ليرسل البعثيين في بعثات دراسية الى فرنسا، فعادوا واستلموا الجامعات والادارات.

كان الصراع على أشده بين قادة الحزب، حتى أنه في انتخابات سنة ١٩٥٥ للمؤتمر القطري كانوا يقولون (عفلق جاسوس انجليزي، والحوراني فرنسي، والبيطار عميل لأكثر من دولة) [٥] .

أما الاتهامات بالسرقة والجرائم الخلقية فحدث عنها ولا حرج.

وهنا نسجل بعض الملاحظات:

١- لقد كان الحزب مأوى يتجمع فيه كل الناقمين على الاسلام أو الطامعين في الحكم، فانتبه النصيريون إليه ودخلوه ليكون سلماً إلى دولتهم النصيرية، ودخل فيه الإسماعيليون مثل سامي الجندي وعبدالكريم الجندي.

والدروز: مثل سليم حاطوم.

واليهود: مثل أحمد رباح الذي كان رئيساً للحزب في دمشق .

وإيلي كوهين [٦] : ضابط المخابرات الاسرائيلي الذي ذهب إلى الأرجنتين، وأقام صداقة مع أمين الحافظ، ثم دخل سوريا باسم (كامل أمين ثابت)، وسكن حي (أبورمانة) في دمشق، وأصبحت شقته الحصن الحصين الذي يأوي إليه قادة البعث وفوق أسرة كوهين شرب نخب النصر سليم حاطوم وعبدالكريم زهرالدين يوم الانقلاب البعثي (٨ آذار ١٩٦٣)، وعرضت على كوهين الوزارة واستشار بن غوريون رئيس وزراء اسرائيل فلم يوافق. وكان يسمى الشاب الثوري الأول، وكان الشخص المدني الوحيد الذي يدخل المطارات والقواعد العسكرية، وأخيراً اكتشفت السفارة الهندية أنه يهودي من خلال الاشارات اللاسلكية التي يرسلها الى اسرائيل يومياً، وكانت فضيحة عالمية، وحوكم كوهين، وكان الذي يحاكمه هم تلاميذه وربائب حجره ، ولعله وعد بأن يخلي سراحه إذا أخذ مصائب الحزب البعثي الحاكم.. وكان سليم حاطوم هو رئيس المحكمة العسكرية التي حاكمته، وبسرعة فائقة طويت القضية، وأعدم كوهين ليطوي في صدره مآسي ونكبات الصبية البعثيين الذين تديرهم اليهودية العالمية من خلال المرأة والكأس.

٢- إن المؤسسين لحزب البعث ليسوا مسلمين أصلاً، فزكي الأرسوزي نصيري ملحد، وميشيل عفلق مسيحي- قيل أنه يوناني الأصل .

٣- إن مبادئ حزب البعث كفر صريح، (العروبة مصدر المقدسات، عنه تنبثق المثل العليا، وبالنسبة إليه تقدر قيم الأشياء العربي سيدالقدر) المثل العليا هي العروبة وليس الاسلام أو القرآن والسنة.

---

(١) البعث ص ٢٧. (٢) البعث ص ٢٧ . (٣) ص ٢١ .
(٤) البعث ص / ٣١. (٥) البعث ص ٧١ .
(٦) إيلي كوهين من جديد/ لمحمد جلال كشك، وجاسوس من اسرائيل لكاتب غربي.

٤ - كان أتباع البعث الأوائل ملحدين، أعداء للأديان جميعاً.

(لقد كنا خوارج على الشرائع التي تعارف عليها الناس فنسفناها جميعاً) [١].

٥ - إن الحزب رغم ادعائه القومية والوطنية لم يعد دراسة عن القضية الفلسطينية[٢] أخطر قضية عربية في العصر الحديث.

٦- لقد تسلق النصيريون على سلم البعث فاستطاعوا أن يستلموا البلد عسكرياً ومدنياً، وفي ٢٣ شباط سنة ١٩٦٦ قام صلاح جديد - النصيري - بحركته التصحيحية - أي إقصاء عناصر اهل السنة من مراكز القوى- وفي سنة ١٩٧٠ عندما جاء حافظ الأسد جعل الدولة نصيرية خالصة.

٧ - إن الأحزاب القومية ليس لها أيديولوجية (عقيدة) تجاه الكون والانسان والحياة، ولذا بقيت إطاراً فقط دون مضمون، ولذا اضطرت أن تملأ فراغها العقائدي بالماركسية والاشتراكية، ولذا فإن الأحزاب القومية كلها أصبحت:-

(عربية الإطار والمظهر شيوعية الحقيقة والمخبر) وهذا الذي أقر به جلال السيد في كتابه (حقيقة القومية العربية) [٣] بأن هنالك تيار عفوي قام بصياغة المواضيع الاقتصادية، لأن الرواسب قد أطلت تحت ستار التقدمية والاشتراكية وبأن الشيوعية هي حقيقة هذا التيار.

٨ - لقد انتحر الحزب بمجرد وصوله إلى الحكم، ولقد انتقد ميشيل عفلق سنة ١٩٦٥ في سوريا تسلط العسكريين على الحزب وإقصاء المدنيين من اللجان المركزية للحزب، فطرد عفلق، بل حكم عليه بالاعدام هو والمؤسس الآخر صلاح البيطار، ثم لوحق البيطار حتى اغتالته النصيرية في باريس سنة ١٩٨١، وأما عفلق فقد احتضنه البعث العراقي بعد وصوله إلى الحكم في انقلاب ١٩٦٨ على عبدالرحمن عارف. فجاء به تلميذه صدام حسين الذي أصبح نائباً لرئيس الجمهورية ثم بالتالي رئيساً لجمهورية العراق.

وقد سئل الرئيس صدام حسين في مقابلة صحفية له طبعت ووزعت في الأردن سنة ١٩٨١:

ما علاقتك بمشيل عفلق؟ فرد صدام: علاقة الابن بأبيه، ولولا ميشيل ما كان صدام شيئا. ومن المعروف أن صداماً كان حارساً خاصاً لميشيل عفلق من بداية الستينات. وكان ميشيل يستعمله لتصفية خصومه السياسيين. وفي سنة ١٩٧٩ صفى الرئيس صدام حسين - منذ الأيام الأولى لحكمه - معظم قادة الحزب لمعارضتهم المبدئية لرئاسته.

وكتب عن مأساة الحزب بعض قادته مثل الدكتور منيف الرزاز (التجربة المرة)، ومطاع الصفدي (حزب البعث مأساة المولد ومأساة المصير).

لقد انتهى الحزب في سوريا إذ تسلق عليه النصيريون ثم قتلوه، وأصبحوا يتفكهون بالتعدي على كل الأديان والقيم والمبادئ. فاستعانوا أولاً بذراري المسلمين الداخلة في حزب البعث، ثم صفوهم تدريجيا، وأصبح الكفر هو شعار الدولة في كل الأجهزة: كتب ابراهيم خلاص في مجلة جيش الشعب السورية ٦٧/٤/٢٥ (والطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي هي خلق الانسان الاشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن أن الله والأديان والاقطاع ورأس المال والاستعمار والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ)[٤].

وقال شفيق الكمالي يمدح صداماً:

تبارك وجهك القدسي فينا كوجه الله ينضح بالجلال

وعندما دخلت قوات البعث حماة سنة ١٩٦٤ كانت تهزج قائلة:

هات سلاح خذ سلاح دين محمد ولى وراح

وفي سنة ١٩٨٠ خرجت سرايا الدفاع والحزبيون يهتفون (يسقط الله) (الأسد ربنا) (لا إله إلا الوطن ولا رسول إلا البعث) [٥].

وأما النصيريون فكانوا يهتفون في جسر الشغور:

(لا إله إلاساجي - بن سليمان المرشد-)

٩ – لقد ابتدأ حزب البعث مع بداية الحرب الثانية ١٩٣٩، وكانت النازية والفاشستية تملأ برنينها العالم ولذا فقد تأثر.. فمثلا زكي الأرسوزي متأثر بنيتشة فيلسوف النازية خاصة كتابه (هكذا تكلم زرداشت عن موت الإله....)، وأما عفلق فهو متأثر كذلك (بنيتشه) وجيد. فجاءت أفكارهم تلخيصاً للالحاد والقلق الذي كان يعاني منه نيتشه الذي كان يسمي المسيحية (دين الكلاب العرجاء)[1]، وأهم سمات فلسفة نيتشة تتلخص في ثلاث نقاط:

١- الالحاد ٢- إن فكرة القيامة هي التي جعلت من المسيحية (أخلاق عبيد) إذ أن حقد الضعفاء تجاه الأقوياء جعلهم يوحون لهم بفكرة الآخرة، فاستسلم الأقوياء للأساطير، وعم ظلام المسيحية العالم .

٣ – اليأس والقلق: اللذان هما شرطان دائمان للعظمة الانسانية[2] .

وإليك مقارنة بين كلام عفلق وكلام النازية والفاشستيه[3] :

١ – (البعث قدر الأمة العربية) يقابل كلام موسوليني (الفاشستية هي قدر الأمة الايطالية) وهو الحق الالهي عند هتلر وهو نفس كلام تروتسكي (إن الحزب الشيوعي لا يخطيء لأنه تجسيد للحتمية التاريخية).

٢ – إن عقيدة البعث لا يمكن الوصول إليها بالعقل ولكن بالايمان وحده) يقابل كلام موسوليني (الفاشستية لا تناقش، إنها تدرك بالإحساس) .

٣- (إن القدر الذي حملنا رسالة البعث أعطانا الحق في أن نأمر بقوة ونتصرف بقسوة) وهو نفس كلام موسوليني (إن القدر الذي حملنا رسالة الفاشستية أعطانا الحق في أن نأمر بقوة، ونتصرف بقسوة).

٤ – (إن البعث هو الطليعة، وعلى الجماهير أن تمشي وراءها)، وهو نفس كلام موسوليني (إن الفاشستية هي حكم الصفوة المختارة وعليها أن تقود الجماهير) .

الانقلابات العسكرية والقومية

ان الأفكار الجديدة لابد لها من قيادات عسكرية تفرض آراءها بالقوة، وتستبدل القومية والاشتراكية بالاسلام.

ولذا فقد أوصت الدوائر الغربية في بلادنا، والمستشرقون بوجوب المجيء بقيادات شابة عسكرية يفرض من خلالهم ما يريد الغرب من مبادئ.

يقول قسطنطين زريق[4] (إن العرب لابد لهم في عهدهم الجديد من قيادة قديرة وتقدمية، وأن عليهم أن ينبذوا من تقاليدهم العناصر الرجعية، وعندئذ فقط تستطيع الطائفة المستنيرة أن تواصل كفاحها ضد العناصر الرجعية بالتعاون مع الغرب).

ويقول جب[5] :

(إن نجاح التطور يتوقف إلى حد بعيد على القادة والزعماء في العالم الاسلامي وعلى الشباب منهم خاصة).

وفكرة القومية قضية جذابة براقة تستطيع أن تخدع الجماهير بسهولة باسم التحرر والتقدم والوطنية.

يقول جب[6] :

(إن الأسلوب الذي استطاعت به طبقة المتغربين تأمين قبضتها الثابتة على السلطة في الدولة.... فالقومية هي فكرة غربية تماماً).

ومن المعلوم أن العسكريين لا علم لهم بادارة الأمم ولا رعاية الشعوب ولا سياسة الجماهير، ولذا تدار البلاد من خلالهم. لقد

(١) نهايات العلمانية د. عماد الدين خليل ص ٩٢ نقلاً عن كتاب كولن ولسن (سقوط الحضارة) ترجمة انيس زكي ص ١٧٤- ١٧٩.

(٢) المذاهب الوجودية جوليفيس ص ٦٣.

(٣) الحلول المستوردة للقرضاوي ص ٢٠٦-٢١١ نقلاً عن كتاب (التجربة والخطأ) لاديب نصور ص ١٦-١٨.

(٤) الشرق الادنى ثقافته ومجتمعه ص ٣٢٥ انظر كتاب الاسلام والحضارة الغربية ص ١٢٦.

(٥) الشرق الادنى ص ٣٥٢ انظر الاسلام والحضارة الغربية ١٣١.

(٦) مقدمة الإسلام والغرب والمستقبل لتوينبي ترجمة صبحي الطويل ص ٩.

وصف (ستيف ميد) المبعوث من وزارة الخارجية الأمريكية فئة العسكر لانقلاب سنة ١٩٥٢ في مصر وصفاً دقيقاً يصلح لكل العسكريين فيقول:

(إن هؤلاء الأولاد يظنون أنفسهم أعضاء عصابة (روبين هود) الهزلية، وهم فرحون بأنهم يحملون صفة (أبطال الثورة) ، ولكني لم أجد واحداً استطاع أن يشرح لي ما هو هدف هذه الثورة... إنهم لا يهتمون بالسياسة، ولعل هذا من حظنا نحن وعبدالناصر معنا... إنهم بحاجة إلى من يقول لهم ماذا يفكرون ويعملون)[١] .

ولقد سأل بعض ضباط الجيش عبدالحكيم عامر-غداة اطلاق النار على عبدالناصر في ميدان المنشية- سنة ١٩٥٤ عما حققته الثورة وأسباب الحادث فقال في صراحة (إنه لا يعرف شيئاً عما تحققه الثورة، وأن جمال هو الذي خطط ونفذ، وهو الذي يعرف خطوات المستقبل) [٢] .

ويقول مورو بيرجر في كتابه (العالم العربي اليوم):

(إن النخبة العسكرية في الشرق الأدنى في مصر والسودان والعراق وتركيا وإيران وباكستان كانت عوامل هامة في جلب التغيير... فأصبح العرب متغربين بدون أن يتكلفوا الذهاب إلى أوربا).

يقول مايلزكوبلاند [٣] :

(إن عبدالناصر لو لم يكن قد ولد فإن لعبتنا كان عليها أن تخلقه أي تربي حاكماً دكتاتوريا مثله) ولذلك فإن منادة عبدالناصر بالقومية سنة ١٩٥٤ كان باشارة أمريكا كما بين ذلك مايلز كوبلاند - رجل المخابرات الأمريكي-، ولقد كان لمناداة عبدالناصر بالقومية أثراً بالغاً في العالم العربي، وما كان للقومية أن يكون لها هذا الانتشار لولا مصر وزعيمها، ولقد مهد عبدالناصر لهذا الانتشار القومية ونجاح البعث وتغلغل الشيوعية وانحسار الاسلام من المنطقة كلها. ولكن الأفكار التي فرضت على المنطقة بالقوة اجتثت من فوق الأرض - كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار- كما يقول برنارد لويس:

(إن أخذ أي نظام سياسي جاهز ليس فقط من بلد مختلف بل من حضارة مختلفة وفرضه بواسطة الغربيين أو الحكام المتغربين في الشرق عمل خاطئ؛ فلقد فرضت الديمقراطية بأوامر وفرامانات الحاكم المطلق... فكانت النتيجة قيام نظام لاصلة له بماضي أو بحاضر البلد، ولا صلة له بحاجات مستقبلة) [٤] .

ولقد نادى كوك ألب بفصل الدين عن الدولة (علمانية الدولة)، ونادى بوجوب أخذ مدنية الغرب بحذافيرها، مع الاحتفاظ بالثقافة القومية، أو بعبارة أدق هو يريد إقصاء الاسلام نهائيا عن الحياة مع عدم السماح للناس أن يسموا هذا العمل إلحاداً أو زندقة، بل على الناس أن يسموا هدم الاسلام اسلاماً.

ويعتبر الغربيون كوك ألب (واضع الأسس النظرية للدولة التركية الحديثة) كما يقول هارولد سمث [٥] .

القومية التركية (الطورانية)

لابد قبل أن نغادر جمعية الاتحاد والترقي وهي جمعية شكلها شباب تركيا -تركيا الفتاة- أن نقف منية عند القومية التركية.

لقد بذرت البذور الأولى للقومية التركية في داخل الأكاديمية العسكرية في استانبول مع الأساتذة العسكريين الألمان الذين وفدوا إلى الكلية ليدربوا الأتراك الذين كانوا بحاجة الى جيش قوي مدرب على وسائل القوة الحديثة وأساليب القتال العالية، خاصة وأن تركيا تقابل العالم بأسره يرميها عن قوس واحدة، فقد وصلت بعثة عسكرية ألمانية سنة ١٨٨٣ يرأسها الكولونيل (فون درجولسن) [٦] وبقي يعمل قرابة ثلاث عشرة سنة تمت خلالها بذرة القومية.

(١) لعبة الأمم/ مايلزكوبلاند ص ٦٤، وتحليله (الدبلوماسية والميكافيلية د.محمد صادق ص ١٩٩.

(٢) قصة ثورة ٢٣ يوليو لأحمد حمروش ج ٢/ ٤٠ وانظر كتاب صفحات من التاريخ ج ١/٢٣٧ لصلاح شادي .

(٣) لعبة الأمم ص ١٢١ وتحليله (الدبلوماسية والميكافيلية) ص ١٤٩.

(٤) الحلول المستوردة للقرضاوي نقلا عن كتاب الغرب والشرق الأوسط ٨٥-٨٦.

وأما العامل الثاني لنشوء القومية الطورانية هو: هجرة اللاجئين المجريين والبولنديين إلى تركيا بعد فشل ثورتهم سنة ١٨٤٨، واعتنق هؤلاء الاسلام وأصبحوا من الطبقة المتنفذة في الدولة، ومن بين هؤلاء (قسطنطين بورزيكي)، وقد سمى نفسه بعد ذلك مصطفى جلال الدين باشا، فلقد كان هذا الرجل هو رأس الأفعى القومية التي نقلت سمها الى عقول ونفوس الأتراك. يقول برنارد لويس:

(ولقد عمل بورزيسكي على نقل القومية البولونية ووضعها في قالب تركي. وساعده على هذا العمل ما عرضه من أعمال المستشرقين الغربيين الباحثين في الشئون التركية.. وكان لها تأثير هام في تقدير التاريخ التركي القديم، والاعتقاد بالهوية المميزة) [١].

ولا يفوتنا أن نعود فنذكر بأن جمعية الاتحاد والترقي كلهم ماسون (يهودية عالمية) ، وأن يهود سالونيك هم اليد المحركة لهذه الجمعية وهم داخلون فيها. ونعود مرة أخرى فنذكر بكلام ستون وتسون: (إن الحقيقة البارزة في تكوين جمعية الاتحاد والترقي أنها غير تركية وغير اسلامية) [٢]. فأطاحت بعبدالحميد وبتركيا وبالاسلام.

ولقد كان لهذه الدعوة الى القومية التركية أثر سيء انعكس في نفوس الشعوب الاسلامية التي تخضع للسيادة العثمانية، وبدأوا يطالبون بالاستقلال ويشكلون الجمعيات السرية لمحاربة تركيا، خاصة بعد السلوك المشين الغريب الذي سارت عليه جمعية الاتحاد والترقي، وعلى رأس هذه الشعوب العرب الذين اتخذوا من هذا السلوك مبرراً للوقوف بجانب بريطانية ضد الأتراك في الثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين، وكان لها من النتائج الوخيمة على العالم الاسلامي.

يقول توينبي[٣] :

(إن الضباط في تركيا الحميدية هي الطبقة الوحيدة التي استطاعت أن تفتح نافذة فكرية دائمة تنفذ عن طريقها التأثيرات الغربية، لذلك ففي سنة ١٩٠٨ وبعد ثلاثين عاماً من حكم استبدادي مظلم كان الجيل التركي الجديد من العسكريين هو رأس الحربة لهجوم الليبرالية الغربية على تركيا).

مقارنة بين القومية الطورانية والقومية العربية

لقد التقت القومية الطورانية والعربية على أشياء أهمها:

١- ان الغرض من كل منهما هو القضاء على تركيا المسلمة، وعلى السلطان عبدالحميد بالذات.

٢- لقد بدأت القوميتان في وقت واحد تقريباً وإن كانت القومية العربية قد تقدمت قليلاً على الطورانية.

٣- القوميتان علمانيتان اتفقتا على استبعاد الاسلام عن الحياة .

٤- إن كلاً من القوميتين نشأتا في محاضن أجنبية، فالقومية العربية نشأت في المحاضن الأمريكية وفي الجامعة الأمريكية بينما الطورانية نشأت في المحافل الماسونية اليهودية التي يشرف عليها اليهود الاسبان والبولنديون والايطاليون.

٥- إن الرواد الأوائل لكل من الدعوتين لم يكونوا مسلمين أصلاً ولا من الجنس الذي يدعون إلى قوميته، فمثلاً (بورزيكي) الذي سمى نفسه مصطفى جلال الدين - بولندي الأصل- عمل على نقل القومية البولندية وصبها في قالب تركي، ومنذ تأسيس جمعية الاتحاد والترقي لم يظهر بين زعمائها وقادتها عضو واحد من أصل تركي صاف، فأنور باشا بولندي مرتد، وجاويد من الطائفة اليهودية (دونمة)، وكراسو (من اليهود الاسبان) في سالونيك، وطلعت باشا من أصل غجري، وأما أحمد رضا فنصفه شركسي ونصفه مجري ومتأثر بكونت [٤].

والرواد الأوائل للقومية العربية كانوا جميعاً من غير المسلمين من بطرس البستاني، وناصيف وابنه ابراهيم اليازجي، والشدياق وأديب إسحق ونقاش وشميل وتقلا وصروف وزيدان ونمر ومشاقة. كل هؤلاء على الاطلاق من النصارى، ثم جاء القرن العشرون وكان من قادتهم: زكي الأرسوزي وميشيل عفلق - قادة البعث. وأنطون سعادة وجورج عبدالمسيح من قادة الحزب القومي السوري، وجورج حبش- من قادة القوميين العرب.

(١) الحلول المستوردة ص/ ١٦٠. (٢) نشأة القومية ، زين زين ص/٨٦-٨٧، انظر الحلول المستوردة ص/ ١٦٤.

(٣) الاسلام والغرب والمستقبل لتوينبي ص ٢٠ تعريب نبيل صبحي.

(٤) نشوء القومية العربية / زين زين ص ٨٥-٨٦.

يقول الكاردينال بريعولي للبابا: [١]

(إن المسيحية في الشرق هي التي زرعت الحركات الثورية وحركات التغيير، وإن أسماء ميشيل عفلق وأنطون سعادة وجورج حبش قد تفسر لك ما أعنيه).

٦- إن الأصابع الماسونية – اليهودية- كانت تحرك طلائع الحركتين، بل لقد نمت الفكرة وترعرعت في المحافل الماسونية، فالخمسة الأوائل الذين أنشأوا (جمعية بيروت السرية) كلهم من الماسون، وكذلك كل الذين نادوا بالطورانية هم من الماسون.

٧ – هنالك بعض الرؤوس المدبرة للإطاحة بالاسلام في تركيا انتقلت لتواصل عملها في القاهرة. فمثلاً عزيز المصري كان في جمعية الاتحاد والترقي، ثم أنشأ (الجمعية القحطانية) و(جمعية العهد)، والحاخام اليهودي في استانبول – ناحوم حايم- انتقل إلى القاهرة بعد اسقاط الخلافة في تركيا. ولقد كان لهذا الحاخام تأثير في السياسة المصرية. فلقد كان العقاد محروماً من جائزة العلم لفترة طويلة، وذات يوم زار ناحوم حايم فأعطي العقاد جائزة العلم في اليوم التالي من قبل عبدالناصر. وكذلك (اسماعيل أحمد أدهم)[٢] جاء من تركيا إلى مصر وألف كتاب (لماذا أنا ملحد)، وأسس (المجمع الشرقي لنشر الالحاد)، وكانت مجلة العصور لإسماعيل مظهر تنشر آراءهم.

٨- تأثرت القومية العربية بالنظريات السياسية الأمريكية، وتأثرت الطورانية بالثورة الفرنسية.

يقول فيليب حتى[٣] :

(كان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج الفكري الغربي أن تولدت مبادئ القومية العربية الشاملة، واستمدت وحيها بالأكثر من النظريات السياسية الأمريكية، بخلاف القومية التركية التي جاءت متأخرة عن العربية والتي استمدت إلهامها من مبادئ الثورة الفرنسية).

٩- لقد كانت الأصابع اليهودية بارزة في القومية التركية، ولا زال اليهود يحرصون على ربط العرب بقوميتهم.

كتب سفير بريطانيا في الآستانه (لاوثر) إلى وزير خارجية بريطانيا (هادينغ) بتاريخ ١٩١٠/٥/٢٩ يقول:

(في سالونيكا مقر حركة الاتحاد والترقي (تركيا الفتاة) يسكن حوالي ١٤٠ ألفاً من اليهود ، (٨٠) ألفاً من أصل أسباني و (٢٠) ألفاً من طائفة سبط اللاوي- اللاويين -، وهم يهود تظاهروا بالاسلام، ومعظم هؤلاء اليهود الاسبانيي الأصل قد حصل في الماضي على الجنسية الايطالية، وهم ماسونيون ينتمون إلى المحافل الايطالية، فاليهودي لوزاتي وسونتيو من رؤساء الوزارة، وغيرهما من أعضاء مجلس الشيوخ والنواب هم أيضا فيما يظهر من الماسونيين، وهم يزعمون بأن محافلهم الماسونية هي فرع من المحفل الأسكتلندي القديم وتبع طقوسه، وقبل بضعة أعوام أسس (عمانوئيل قراصو) وهو يهودي ماسوني من سالونيكا ويمثل الآن مدينة سالونيكا في مجلس المبعوثان العثماني (وهو المجلس النيابي الذي يمثل كل الطوائف والطبقات من رعايا الدولة العثمانية مسلمين كانوا أو غير مسلمين) بالتعاون مع الماسونية الايطالية محفلاً في سالونيكا سمي (بالمحفل المقدوني). ويبدو أن قراصو قد اقنع رجال تركيا الفتاة ضباطاً ومدنيين بالانتماء إلى الماسونية، وهدف من ذلك فرض النفوذ اليهودي – غير المستساغ- على الأوضاع التركية الجديدة، وإن كان يتظاهر بأنه إنما يريد مساعدة رجال تركيا الفتاة في تضليل جواسيس السلطان عبدالحميد ومنحهم الأمن في محفله الماسوني، لأن هذا المحفل الماسوني ينعقد في بيت أجنبي يتمتع بالحصانة الممنوحة للأجانب في الدولة العثمانية ضد الملاحقة والتفتيش، وقد عملت الماسونية على رفع رمزي بك – وهو يهودي ماسوني – تظاهر بالاسلام إلى مركز رئيس أركان حرب السلطان محمد رشاد، وعند ما نقل السلطان عبدالحميد عين أخ لرمزي مشرفاً عليه) [٤] .

أما حرص اليهود على بقاء الشعور القومي لدى العرب فهو ظاهر خوفاً من عودة العرب إلى الاسلام.

يقول أبا إيبان [٥] – كان وزيراً لخارجية اسرائيل – في محاضرة له في جامعة برنستون/ أمريكا:

(يحاول بعض الزعماء العرب أن يتعرف على نسبة المد الاسلامي بعد الهزيمة الأخيرة، وفي ذلك الخطر الحقيقي على إسرائيل، ولذا كان من أولى واجباتنا أن نبقي العرب على يقين راسخ بنسبهم القومي لا الإسلامي).

حكم الإسلام في القومية العربية

جاء الاسلام منذ اليوم الأول ليصوغ البشرية على مبادئ جديدة يتجمعون عليها، ويلتقون في ظلها، وجاء لينقل الانسان نق بعيدة فيرتفع به من التراب والطين إلى العقيدة والدين، وجاء ليقر الحق ويبطل الباطل، ويعطي كل ذي حق حقه، وعلّم الناس أن يكون قوامين بالقسط شهداء لله.

(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فال أولى بهما، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا)[1].

جاء الاسلام ليقيم العدل في الأرض، فقد قال عبدالله بن رواحة لما بعثه رسول الله ﴿ﷺ﴾ يخرص على أهل خيبر ثماره وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقال: والله لقد جئتكم من عند أحب الخلق إليّ، ولأنتم أبغض إليّ من أعدادكم من القر والخنازير، وما يحملني حبي إياه، وبغضي لكم، على أن لا أعدل فيكم، فقالوا: **بهذا قامت السموات والأرض**[2].

وعندما سرق بنو أبيرق (طعمة أو بشير) درعاً وسلاحاً وطحيناً من بيت (رفاعة بن زيد)، ثم كادت السرقة تظهر عند طعم فألقى طعمة السلاح في بيت آخر -جاء في بعض الروايات أنه يهودي-، وكاد الرسول ﴿ﷺ﴾ يصدق أن السارق هو اليهودي واسم زيد بن السمين، نزلت عشر آيات من السماء تبرئ زيد بن السمين اليهودي وتثبت السرقة عند المنافق الذي يظهر الاسلام وهو طعم بن أبيرق الذي قال عنه رسول الله ﴿ﷺ﴾ عندما جاءته الشكوى: **(عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم اسلام وصلاح ترميهم بالسرقة م غير ثبت ولا بينة)**[3].

وجاء الاسلام ليخرج الناس من حياة الحيوان التي يكون تجمع القطيع فيها على الكلأ والحظيرة إلى التجمع على أساس العقيدة والمبادئ، ونزل القرآن يلعن أبالهب- عبدالعزى بن عبدالمطلب - عم الرسول ﴿ﷺ﴾ الهاشمي القرشي، ويرفع بلالاً وعمار وصهيباً ويأمر الرسول ﴿ﷺ﴾ أن يصبر نفسه معهم **«واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا ت عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا»**[4].

(وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة ....)[5].

جاء الأقرع بن حابس وعيينه بن حصن الفزاري للرسول ﴿ﷺ﴾، وعندما رأوا صهيباً وبلالاً وعماراً وخباباً حوله قالوا: محمد (إن وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد)[6].

فكاد ﴿ﷺ﴾ يوافق أن يقرر لزعماء العرب مجلساً، فنزل جبريل عليه السلام بالقرآن ينهاه ويقول له (ولا تطرد الذين يدعو ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين)[7]

وسمّى رسول الله ﴿ﷺ﴾ أبا جهل -عمر بن هشام- فرعون هذه الأمة وإن كان مخزومياً قرشياً.

وقتل أبو عبيدة أباه في بدر، وكان رأي عمر أن يقتل الأسرى في بدر وإن كانوا قرشيين ومن أقاربهم الأدنين (جمع أدنى وانتصر الاسلام بأمثال هؤلاء الأعبد، وطوت عجلة التاريخ القرشيين المعاندين ليبقوا لعنة وعاراً في صفحات تاريخ هذه الأمة، واختف من بين الناس تلك النعرات الجاهلية والأصوات المنكرة التي كانت تؤجج نار حرب البسوس وحرب داحس والغبراء، واختفى صو الشاعر دريد بن الصمة

وما أنا الاّ من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

اختفى هذا الصوت ليرتفع الصوت الجديد بنشيده:

أبي الاسلام لا أب لي سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم

واختنقت الأصوات التي تنادي بالانتصار لبكر أو تغلب أو لخزاعة عندما دوى صوت الوحي في جنبات الأرض.

---

(١) النساء / ١٣٥.
(٢) انظر مختصر ابن كثير للصابوني ١/٤٤٧ ومعنى يخرص التمر: يقدر كميته.
(٣) انظر مختصر ابن كثير للصابوني ١/٤٣٤-٤٣٧ والآيات من سورة النساء من آية (١٠٥-١١٥).
(٤) الكهف / ٢٨.
(٥) النساء / ٥٤.
(٦) مختصر ابن كثير ١/٥٨١.
(٧) الأنعام: ٥٢.

(يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير)[1]

وأصبحت أنشودة كل مسلم:

الهند لنا والصين لنــا	والعرب لنا والكل لنــا
أضحى الاسلام لنا دينا	وجميع الكون لنا وطنا
دستور الله لنـــا نور	أعددنا القلب له سكنا

والآن نأتي إلى القومية العربيةالحديثة
لنرى حكم الاسلام فيها

هنالك عدة قضايا نبني عليها حكمنا:

١- القومية العربية تقيم التجمع واللقاء على أساس الجنس والأرض بدل العقيدة، وهذا يصطدم مع الاسلام.

٢ - القومية العربية تفضل المسيحي العربي على المسلم الباكستاني أو التركي وهذا يناقض القرآن (إن أكرمكم عند الله أتقاكم...).

٣ - القومية العربية تنصر اليهودي العربي أو المسيحي العربي على المسلم الباكستاني أو الأفغاني وإن كان الحق للباكستاني أو الأفغاني أو الايراني. وهذا يناقض (فأصبحتم بنعمته إخوانا....) (المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه).

٤- القومية العربية: توالي الكفار وتتبع القادة الكفار، فهي تقدم كلام ميشيل عفلق أو جورج حبش أو أساتذتهم أمثال نيتشة وروسو على أي كلام آخر ولو كان كلام الرسول ﴿ﷺ﴾ . والله يقول:

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم...)[2]

٥ - القومية العربية لا تقبل أن تجعل قانونها من الاسلام خوفاً من إثارة النعرات الدينية والطائفية -كما يدعون- فهي تريد أن تبعد ٩٠٪ من أبناء الدول العربية عن اسلامهم وتخرجهم عن دينهم مراعاة لشعور فئة قليلة من المسيحيين العرب .

(وإذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم....)[3]

٦ - القومية العربية لا ترى أن الاسلام صالح لهذا الزمان ولذلك كثيراً ما تصف الاسلام بالرجعية والجمود والتأخر، وتصف العلمانية والتحلل من الدين بالتقدمية والتحرر.

٧ - القوميون العرب يرون أن الاسلام وثبة من وثبات الأمة العربية أدت دورها ومضت، وأما اليوم فهناك مبادئ أخرى تؤدي دورها دون الاسلام الذي لا يستطيع أن يواكب العصر.

٨ - القوميون يرون أن القومية العربية دين جديد له سدنته وحواريوه وأتباعه وقديسوه.

يقول محمود تيمور[4] : (وإن كتاب العرب في أعناقهم أمانة هي أن يكونوا حواريين لتلك النبوة الصادقة - القومية- يزكونها بأقلامهم).

ويقول علي ناصر الدين[5] في مقدمة كتابه (قضية العرب) ط ٣ :

(العروبة نفسها دين عندنا - نحن القوميين العرب المؤمنين العريقين من مسلمين ومسيحيين-، ولئن كان لكل عصر نبوته المقدسة، إن القومية العربية لهي نبوة هذا العصر).

جاء في مجلة العربي[6] عدد ٢ ص ٩ يناير ٥٩ (الوحدة العربية يجب أن تنزل من قلوب العرب أينما كانوا منزل وحدة الله من

(١) الحجرات / ١٣.

(٢) المائدة / ٥١

قلوب قوم مؤمنين).

ويقول عمر فاخوري (كيف ينهض العرب):

(لا ينهض العرب إلا إذا أصبحت العربية - أو المبدأ العربي - ديانة يغارون عليها كما يغار المسلم على قرآن النبي الكريم وغرضي من هذا الكتاب تشكيل ديانة جديدة هي الجنسية أو العنصرية العربية).

٩ - القومية العربية تقديم للجاهلية على الاسلام (**أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون**) والجاهلية هي كل حكم غير حكم الله. ولقد رأينا أن زكي الأرسوزي [١] يرى أن الجاهلية العربية هي الفترة الذهبية في حياة العرب ويراها مثلها الأعلى.

١٠ - القومية العربية: طاغوت جديد (صنم جديد)، والطاغوت: كل حكم غير حكم الله، وكل ما أطيع من دون الله، وكل ما تحاكم إليه الناس دون الله، سواء كان صنماً أو كاهناً أو شيطاناً أو قانوناً أو وطناً أو قوماً أو زعيم قبيلة أو عشيرة أو بلداً.

وهذا كفر بنص القرآن (**ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون ان يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقا**)[٢] صدق الله العظيم: إنهم يقولون لا نريد إلا الاحسان والتوفيق بالقومية، لا نريد إلا الوحدة الوطنية، ونريد أن نتلافى الخلافات المذهبية والطائفية والدينية.

يقول ابن كثير [٣] : (من ترك الشرع المحكم المنزل على محمد بن عبدالله خاتم الأنبياء وتحاكم إلى غيره من الشرائع المنسوخة فقد كفر. فكيف بمن تحاكم إلى الياسا - قانون جنكيزخان - وقدمها عليه - على الاسلام - لا شك أن هذا يكفر بإجماع المسلمين).

ويقول سيد قطب (إن الذي يحكم على عابد الوثن بالشرك ولا يحكم على الذي يتحاكم إلى الطاغوت بالشرك. ويتحرج من هذا - الحكم بالكفر على من يتحاكم إلى الطاغوت - ولا يتحرج من تلك، إن هؤلاء لا يقرأون القرآن، فليقرأوا القرآن كما أنزل، وليأخذ قول الله بجد (**وإن أطعتموهم إنكم لمشركون**)[٤] . وبعد:

فهذه نقاط عشر، كل واحدة منها تخرج القومي من الاسلام وتكفره كفراً ينقله عن الملة الاسلامية.

ولزيادة الطمأنينة أنقل إليك بعض النصوص الكريمة من فم النبوة الشريف:

١ - عن جندب بن عبدالله مرفوعاً إلى الرسول ﴿ﷺ﴾ (**من قتل تحت راية عمية، يدعو إلى عصبية أو ينصر عصبية، فقتلة جاهلية**) [٥] .

وفي رواية (**من قتل تحت راية عمية، ينصر العصبية، ويغضب للعصبية، فقتلته جاهلية**)[٦] .

٢ - عن جبير بن مطعم مرفوعاً (**ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية**) [٧] .

٣ - عن ابن مسعود مرفوعاً [٨] (**من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي ردي في مهواة فهو ينزع بذنبه**) [٩] .

٤- عن أبي مرفوعاً (**إذا رأيتم الرجل يتعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنّوا**) [١٠] .

أعضوه بهن أبيه: أي قولوا له: عض أير أبيك - هكذا في النهاية لابن الأثير.

٥ - عن أبي هريرة مرفوعاً (**لينتهين أقوام يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخرء بأنفه، إن الله أذهب عنكم عبيّة الجاهلية وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي أو فاجر شقي، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من التراب**) [١١] .

---

(١) البعث لسامي الجندي ص ٢٨. (٢) سورة النساء ٦٠-٦٣. (٣) البداية والنهاية ج ١٣/١١٨-١١٩.

(٤) في ظلال القرآن عند آية (وإن أطعتموهم إنكم لشركون...) الأنعام ١٢١. (٥) رواه مسلم والنسائي جامع الاصول لابن الاثير ١٠/٥٨.

(٦) رواه مسلم والنسائي عن جندب وابن ماجه عن أبي هريرة صحيح الجامع الصغير ٦٣١٨ ج ٥/٣٣٤. (٧) رواه أبو داود وهو حسن لغيره.

(٨) جامع الأصول ١٠/٥٨ وانظر صحيح الجامع ٦٤٥٠ ج ٥. (٩) رواه أبو داود باسناد صحيح و أحمد وابن حبان والحاكم.

(١٠) رواه أحمد والترمذي وهو صحيح (صحيح الجامع ٥٨١ ج ١/ ٢١٥). (١١) رواه الترمذي وهو صحيح و رواه أحمد والحاكم في المستدرك (صحيح الجامع ٥٣٠٨ ج٥/١١١).

هذه النصوص فيمن يعتز بآبائه الجاهليين، فكيف بمن يقدم الجاهلية على الاسلام ؟ وكيف بمن يقول : (إن العروبة مصدر إلهامنا، ومصدر مقدساتنا، عنه تنبثق المثل العليا، وبالنسبة إليه تقدر قيمة الأشياء ، والعربي هو سيد القدر)(١).

وكيف تحكم على البعثي الذي كتب في جريدته عن مشيل عفلق (الإله العائد)، وقال شاعرهم:

يا سيـــدي ومعبـــدي حسبي ألم فتاتكم حسبي

وكيف تحكم على البعث السوريين الذين يقولون:(٢)

(إن الطريق الوحيد لتشييد حضارة العرب وبناء المجتمع العربي: هي خلق الانسان الإشتراكي العربي الجديد الذي يؤمن أن الله والأديان والإقطاع ورأس المال والاستعمار والمتخمين وكل القيم التي سادت المجتمع السابق ليست إلا دمى محنطة في متاحف التاريخ).

وقد أشرت قبل قليل إلى بعض النصوص التي تعتبر العروبة دينا لها نبوتها، والإيمان بالعروبة يجب أن يكون كالإيمان بالوحدانية لله.

إن القوميين يصرحون على لسان قادتهم (ألحدنا بكل الطقوس والعلاقات والأديان، اتهمنا بالالحاد وكان ذلك صحيحاً - رغم كل ما زعم البعثيون فيما يعد من مزاعم التبرير- لقد كنا خوارج على كل الشرائع التي تعارف عليها الناس فنسفناها)(٣) .

اعتناق مبادئ القومية كفر ينقل عن الملة

وبناء على ما تقدم فإن اعتناق مبادئ القومية العربية وغير العربية كالكردية والايرانية كفر ينقل عن الملة ويخرج من الاسلام.

فمن اعتنق مبادئ القومية فإنه يخرج من الاسلام فلا تؤكل ذبيحته، ولا تنكح البنت القومية، ولا يزوج القومي من بنات المسلمين، ولا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه، ولا يقبر في مقابر المسلمين، ولا يرد عليه السلام، ولا يترحم عليه إذا مات -فلا نقول يرحمه الله-، ولا يرث الشاب القومي من أبيه المسلم، ولا يرثه أبناؤه إن كانوا مسلمين ويخالفونه في مذهبه القومي. وإذا اعتنق الشاب القومية وهو متزوج مسلمة فتطلق منه وتحرم عليه، وإذا بقيت على صلة به فالصلة الجنسية بينهما زنا، وأولادهما أولاد زنا، وعورة المرأة المسلمة أمام الفتاة القومية كعورتها أمام الرجل فلا يحل لها كشف رأسها أمام الفتاة القومية. والمرأة اذا اعتنقت القومية وهي متزوجة مسلماً ينفسخ العقد حالاً.

١- **سيقول أناس:** إن بعضهم يصلي ويصوم أحياناً. فنقول: إن الصلاة والصيام لا يقبلان مع فساد العقيدة والشرك، فلقد كان الجاهليون يصلون ويحجون ويدعون، ولكن الله ردّ أعمالهم كلها لأنها ليست مبنية على إيمان بالله وبرسوله وبدينه، ولأن الأعمال الصالحة لا تقبل من الكفار.

٢ - **وسيقول آخرون:** إن كثيراً من الحزبيين منتفعون من أجل المناصب والأموال يقبلون على الحزب، فنرد عليهم: نحن لا نعلم الغيب، ونجري أحكامنا على الظاهر، ونحاسبهم على ما يخرج من أفواههم، وندع قلوبهم إلى الله - عز وجل- فالقاعدة العامة: أن القومي كافر، والاستثناء إنما هو استثناء من عموم القاعدة، فلا يثبت إلا بدليل قوي يرجح على الأصل، أي أننا إذا تأكدنا من شاب أنه يكره القومية ويحب انتهاءها ويقاوم في الواقع انتشارها فإننا نحكم له بالاسلام.

ولا بد من معرفة أن هؤلاء المنتفعين هم أنصار الكفر بهم ينتشر وعلى أكتافهم يقوم .

٣ - **وسيقول فريق ثالث:** إن معظم الأفراد جهلة بالحكم الشرعي، فنرد عليهم: الجاهل يعلم ويبين له الحكم، فإن أصر فإنه يحكم عليه بالكفر. فإذا كتب بعض العلماء الذين يوثق بدينهم مقالات أو كتباً في تكفير القوميين فإن هذا يكفي في التبليغ، ولم يبق الجهل عذراً بعد البيان.

---

(١) قالها زكي الأرسوزي في مبادىء الحزب. انظر البعث ص ٢٢٢.

(٢) مجلة جيش الشعب السورية ٢٥/٤/١٩٧م

٤ – وقد يسأل شاب توبي: ما حكم القومي إذا تاب ورجع: هل يقضي الصلوات والصيام؟

فنقول -والله المستعان- الإسلام يجب (يقطع) ما قبله[1] فليس عليه أن يقضي الصلاة والصيام.

وفي الحديث[2] (إذا أسلم العبد فحسن اسلامه، يكفر الله عنه كل سيئة كان زلفها (قدمها) .

وفي الحديث الآخر (إذا أسلم العبد فحسن اسلامه، كتب الله كل حسنة كان أسلفها، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها) [4]

كلمة أخيرة في القومية

وختاماً نريد أن نسأل القوميين بعض الأسئلة:

١ – ما هي مبادئكم؟ وكيف تصوغون قوانينكم؟ ومن أين تستقونها؟

٢ – ما هي نظرتكم نحو الكون والانسان والحياة؟

٣ – ماهي أنظمتكم الاقتصادية، والأخلاقية، والاجتماعية والعائلية، والسياسية؟

٤– أين يقع الاسلام من دعواتكم؟

٥ – ما هي الأسس التي ستعاملون عليها شعوبكم إذا حكمتم؟ وكيف ستعاملون شعوب الأرض الأخرى؟

٦ – كيف ستعاملون الشعوب الاسلامية؟ أتكون معاملتهم تماماً كالشعوب الوثنية – البوذية والهندوسية-، أو كالشـ النصرانية في الغرب.

أما المبادئ : فلم يصلوا حتى الآن إلى تعريف لأحزابهم، يقول سامي الجندي: (بدأ الحزبيون يسألون ما هو البعث؟ مـ وحدة البعث، أيهما أسبق الوحدة أو الاشتراكية؟ لم تجب القيادة ولا تستطيع أن تجيب حتى الآن)[5] .

أما القوانين: فإنهم سيأخذونها من أي مصدر – عدا الاسلام-، أما النظرة (العقيدة) في الله، والنظرة إلى الكون والا والحياة، فليس عندهم نصوص في هذا، ولذا لجأوا إلى الماركسية لملأ الفراغ الفكري عندهم.

أما الأخلاق: أي بيان قائمة الحلال والحرام في المجتمع العربي فليس هنالك أي شيء من هذا، ولذا فأخلاق المجتمعات ال -بدون إسلام- أخلاق نفعية تبنى على المصلحة والمنفعة المؤقتة العاجلة. والغاية تبرر الوسيلة كما قال ميكافيلي.

أما الاسلام: فقد اختلفوا في النظرة إليه في الماضي، أما في الحاضر فهم على اتفاق أنه يجب أن ينبذ من الحياة، أما بال للاسلام في الماضي:

١– فمنهم الجاحد لفضله أبداً : مثل قسطنطين زريق الذي يرى أن العرب هم نقلة لحضارة اليونان والرومان ولم يـ حضارة.

٢ – ومنهم المغفل : أمثال علي عبدالرازق (الاسلام وأصول الحكم)، وخالد محمد خالد (من هنا نبدأ) الذين يرون أن الدي أساس التفرقة والتمزق ولذا يجب إبعاده من المجتمعات.

٣– ومنهم المنكر فقط وليس جاحداً بالمرة: مثل ميشيل عفلق : فهو يرى أن الاسلام وثبة من وثبات الأمة العربية، ولكن ا ذلك إلى الوحي والنبوة لقدرات الأمة العربية تجمعت في الماضي حتى أنتجت محمداً .

٤– ومنهم المذبذب والمنافق: مثل حازم نسيبة – من ذراري المسلمين – فهو يقول[6] : (وقد انصب المستشرقون في ا التاسع عشر بكل قواهم على بحث النواحي الدنيوية أكثر مما اهتموا بالنواحي اللاهوتيه من التاريخ العربي الذي أظهر أن العربية أقامت حضارة متقدمه راقية قبل الاسلام وبعده على السواء، وبهذا لم تكن الحضارة العربية حادثاً دينياً صرفاً لا النصارى العرب أن يشاركوا فيه، بل العكس هو الصحيح وهو: أن لتلك الحضارة ملامح منقطعة الصلة بالدين كما أثبت الواقع

(١) حديث صحيح رواه ابن سعد عن ابن الزبير وجبير بن مطعم، انظر صحيح الجامع ٢٧٧٤.
(٢) رواه البخاري والنسائي - صحيح الجامع الصغير ٣٢٣ ، ٣٣٤ ج ١٥٢/١.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٣٣٣ ، ٣٣٤ ج ١/ ١٥٦.
(٤) حديث صحيح رواه مالك والنسائي والبيهقي.
(٥) البعث ص ٧٠.
(٦) القومية العربية – فكرتها، نشأتها، ترجمة عبداللطيف شرارة.

انصب الباحثون الغربيون على كشفه)، وليت شعري من سبق حازم نسيبة بهذا الرأي سواء كان من ذراري الصليبين من المستشرقين أو الباحثين أو من ذراري المسلمين – المستغربين – أن ينكر صلة الاسلام بالحضارة العربية أبداً؟ وأين حضارة العرب قبل الاسلام؟ أهي حضارة عنترة أو أبي جهل أو أبي لهب؟ ولعلها حضارة مسليمة الكذاب.

وأخيراً لمانا نقول: إن واقع العرب يدل دلالة واضحة على النتائج التي توصلت إليها الدعوات القومية والإقليمية والعلمانية:

١ – قطع صلة العرب بالدول الاسلامية.

٢ – تمزيق العالم العربي الى دويلات هزيلة حتى تبقى في قبضة العالم الغربي والشرقي، تتسابق في ولائها لأمريكا أو إلى روسيا لتحمي أنظمتها في المنطقة.

٣ – تضخم الكيان الاسرائيلي الذي أصبح تنيناً يفتح شدقيه يبتلع كل فترة جزءاً من بلاد العرب.

٤ – انهيارات في معظم النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعسكرية.

٥ – نشوء أجيال ليس لها هوية معينة، وليس لها أي مبدأ في الحياة، لا تعلم لماذا تعيش؟ ممزقة خلقياً، متفسخة اجتماعياً، متفككة أسرياً ، ألهتهم هواء، تراهم كل يوم في رأي، يغيرون أفكارهم كما يغيرون أزياءهم في الاعتقاد والاقتصاد والثقافة والاجتماع، يقول زويمر – زعيم المبشرين – مخاطباً المبشرين (إنكم أعددتم شباباً في ديار الإسلام لا يعرف الصلة بالله، ولا يريد أن يعرفها، وأخرجتم المسلم من الاسلام، فجاء النشء الاسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار، لا يهتم للعظائم، ويحب الراحة والكسل، ولا يصرف همه في الدنيا إلا في الشهوات)[١] .

إن هذا الشرق لم يشهد في يوم من الأيام وحدة ولا عزة، ولم يكن له كيان إلا بالاسلام الذي وحده أول مرة، ولن يجد نفسه مرة ثانية إلا بالإسلام.

لقد مزقت القومية أوربا فنقلها العرب ليمزقوا أمتهم الإسلامية، بل ليفتتوا الشعوب العربية نفسها.

كما يقول توينبي[٢] (فهل من الضروري حقاً أن يتفتت العالم العربي كما تفتتت الأمبراطورية الإسبانية في أمريكا –لسوء الحظ– إلى عشرين دولة مستقلة عن بعضها تعيش في قوالب ضيقة غربية النمط. هذا هو الوجه الثاني الكالح لحضارتنا الغربية، ومن المؤسف أن تقلده الشعوب الناطقة بالعربية تقليداً تاماً. إن سحر القومية جذاب في أمثال هذه المجتمعات الإسلامية المبعثرة، ولكن القومية لن تقود هذه المجتمعات الى حياة جديدة، بل إلى حكم بالموت والفناء).

إن النغمة التي عزفتها الطبقات المتسلطة في العالم الاسلامي والعربي هي نغمة القومية، وهي معزوفة جميلة تشنف الأسماع وتبهج القلوب، ولكنها مخدرات تذبح الشعوب من خلالها على مذابح الشهوات قرابين رخيصة في سبيل الطغاة والطاغوت، وإن الخرير الذي يعكسه صوت النزيف الدموي قد جذب كثيراً من القطعان لتساق إلى مذبحها ونهايتها البئيسة الأليمة.

يقول جب[٣] : (إن الأسلوب الذي استطاعت به طبقة المتغربين تأمين قبضتها الثابته على السلطة في الدولة... كان القومية... فالقومية هي فكرة غربية تماماً).

وإن سبب انتشار القومية في العالم العربي هو سيطرة الغرب نفسه على العالم الإسلامي.

(ففي الوقت الحاضر الذي يجد الغرب نفسه منذ الحرب العالمية الثانية ويرى أنه مجزء إلى أكثر من أربعين دولة قومية مستقلة ذات سيادة يهدد بانهيار البيت كله كاملة على من فيه بسبب انقسامه هكذا على نفسه.

ومع ذلك فإن اعتبار الغرب لا يزال له من القوة في العالم ما يبقي جرثومة القومية الغربية قادرة على السريان والعدوى، ومن المأمول أن يستطيع العالم الاسلامي على كل حال إيقاف انتشار هذا الداء السياسي الغربي – القومية– عن طريق الشعور الاسلامي القومي بالوحدة) [٤] .

إن القومية ليست الدواء الناجع لأمراضنا، بل هي داء عضال مما أصابنا.

يقول سمث : (وتاريخ الشرق الأدنى الحديث يدل أن القومية المجردة ليست القاعدة الملائمة للنهوض بالواجب الشاق، وما ا
يكن المثل الأعلى إسلامياً على وجه من الوجوه، لن تثمر الجهود البتة) .

وما أجمل كلمة سيد نا عمر بن الخطاب تنتهي بها هذا البحث:

(نحن قوم أعزنا الله بهذا الدين ومهما ابتغينا العزة عن غير طريقه أذلنا الله).

(لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون) فالمسلمون يذكرون بالقرآن، فبسبب من هذا الكتاب تذكر هذه الأمة، ولا
تقدم العرب أول مرة إلى البشرية على هدي هذا القرآن، وأمسكوا بزمام البشرية بعد أن تمسكوا بالكتاب وأقاموه في حياتهم.

(وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) .

(قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم)[1] .

فأهل القرآن ليسوا على شيء، لا وزن لهم ولا قيمة إلا إذا أقاموه فيهم، وعملوا به في حياتهم، وطبقوه في واقعهم.

(ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذاً لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً ولهديناهم صراطاً مستقيماً)[2]

جاء في تقرير ديلسبس – قنصل فرنسا العام في سوريا– في ١٩٥٦/٨/١٩ الذي كتبه بمساعدة مساعده(بلانس) ما يلي (م
أبرز الحقائق التي يلحظها من يريد درس هذه البلدان المكانة التي يحتلها الدين في نفوس الناس، والسلطة التي له في حياة الناس
فالدين يظهر في كل مكان وفي كل أمر.

ففي المجتمع الشرقي يظهر أثر الدين في الأخلاق العامة، وفي اللغة، وفي الأدب، وفي جميع المؤسسات الاجتماعية.

والرجل الشرقي لا ينتمي إلى وطن ولد فيه – الشرقي ليس له وطن– بل إلى الدين الذين ولد فيه، وكما أن الرجل في الغر
ينتمي إلى وطن، فإنه في الشرق ينتمي إلى دين، وأمة الرجل الشرقي هي مجموعة الناس الذين يعتنقون الدين ذاته الذي يعتنقه هـ
وكل فرد خارج عن حظيرة الدين هو بالنسبة إليه رجل أجنبي غريب)[3] .

القوميات والإقليميات الجاهلية

لقد حرك الغرب وتلاميذه في كل مكان نغمات الارتباط بالجاهليات التي تسبق الاسلام حتى يقطع الصلة بالاسلام ويتجاوزها

ففي المغرب: حاولت الادارة الفرنسية أن تشد أزر الروح الجنسية بين بربر مراكش، فقامت بإصدار الظهير البربري في ١
مايو سنة ١٩٣٠ الذي قضى بتنفيذ الأحكام العرفية البربرية وقانونهم الخاص بالأحوال الشخصية بدل الشريعة الاسلامية.

وفي إندونيسيا : اكتشفت الحضارة الجاوية – الهندوكية .

وفي لبنان: أثار سعيد عقل و يوسف السودا وفيكتور خلاط شبح الفنيقية، وقالوا: بأن لبنان لا ينتمي إلى العرب، بل جزء ،
حضارة البحر المتوسط – إيطاليا، اليونان.

وفي مصر : أثيرت الحضارة الفرعونية، خاصة بعد اكتشاف توت عنخ أمون، وبعد أن حل شامليون حجر روزيتا، وتو
سلامة موسى، ولطفي السيد، ثم سعد زغلول، وطه حسين الدعوة إلى الفرعونية، وبدأت تظهر أسماء رعمسيس، الأهرام، نفرتيتا
أبوالهول، واتخذ أبو الهول شعاراً يمثل نهضة مصر، وفي زمن عبدالناصر أقيم السدّ العالي فأثارت اليونسكو همة العالم لإنقاذ مـ
أبي سنبل الفرعوني، ونقل تمثال رمسيس – فرعون موسى– الى القاهرة وكلف الملايين، وأصبح الأتراك ينادون بشعار (تر
للأتراك) ومصر (للمصريين) .

يقول « كويلريغ » عن لويس توماس[4] (أنه قد استطاع أن يرسم الخطوط العريضة للظروف التاريخيه والاجتماعية للحر
التي انتهت بالزعماء الأتراك المحدثين إلى تحقيق مبدأ تركيا للأتراك، وهذا المبدأ الذي سار عليه أغلب شعوب المنطقة)، ولذلك ك
الكماليين يقولون[5] (نريد أن نبني إسلاماً تركياً يصبح ملكاً لنا وجزءاً في مجتمعنا الجديد على نحو الكنيسة الأنجليكانية التي ا

---

(١) المائدة . ٦٨. (٢) النساء ٦٦ – ٦٨. (٣) الحلول المستوردة ص ١٦٠ نقلاً عن كتاب نشوء القومية ص ١٨٥.

(٤) الشرق الأدنى مجتمعه وثقافته / مؤتمر لمجموعة من المستشرقين في جامعة برنستون في أمريكا سنة ١٩٤٧.

(٥) انظر كتاب الاسلام والحضارة الغربية لمحمد حسين نقلا عن (الاسلام في العصر الحديث/كانتون سمث) ص ١٩٢.

مسيحية على النمط الأنجليزي) ، وفي مصر العربية كانت أضواء هذه الصيحات تتجاوب فتحرك الببغاوات المصرية التي تلعب بها الأصابع الغربية (الانجليزية بالذات) فتنادي (بفرعونية مصر)، فقال طه حسين (المصري فرعوني قبل أن يكون عربياً)، وقال طه (لو وقف الإسلام بيني وبين فرعونيتي لنبذت إسلامي)، وقال شوقي:-

وجـه الكنانة ليس يغضب ربكم — أن تجعلـــوه كوجهــــه معبوداً

ويقول شوقي مخاطباً مصر:

أدير إليك قبـل البيت وجهــي — إذا فهت الشهـــادة والمتـــابـا

ويقول شوقي متغنياً بالهرم[1] .

هو من بنــاء الظلم إلا أنـــه — يبيض وجــه الظلم منه ويشرق

ويقول شوقي في توت عنخ آمون:

وطوى القرون القهقرى حتى أتـــى — فرعـــون بين طعامـــه وشـــرابه

ويقول شوقي في أبي الهول:

تحيـــرت البـــدو ماذا تكون — وضلت بـــوادي الظنون الحضر

ويقول حافظ ابراهيم:

أنا مصري بناني من بنى — هرم الدهر الذي أعيا الفنا

وعليه فانه ليس من الغريب أن نرى اهتمام الغرب الكبير بالآثار والمتاحف الوطنية، فتأسست قبل قرن تقريباً هيئات غربيـة للإشـراف على التنقيب فـي العالم الإسلامي لـربط المسلميـن بالآثــار وبالقيــم والأعلام الذين كانوا قبل مجيء الاسلام، فجاء (بوتا) ولايارد إلى العراق BOTTA AND LOYARD ، (وماريت) MARIET في مصر، وشلمان في تركيا SCHLIMAN [2] ثم أنشئوا دوائر الآثار والمتاحف الوطنية، وليس عجيباً بعد ذلك أن ندرك تبرع مؤسسة «روكفلر اليهودية» بعشرة ملايين دولار لإنشاء متحف للآثار الفرعونية ومعهد لتخريج رجال الآثار[3] ، ولعلنا بعد هذا نصل إلى سبب النص في صك الانتداب البريطاني على فلسطين مادة (٢١): يجب أن تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الأولى من تاريخ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات). كل هذا لقطع صلة المسلمين باسلامهم وربطهم بالجاهلية الأولى ، حتى يتسنى للغرب أن يستعبدهم ويذلهم تحت يده.

يقول الدكتور «ولسون» في مؤتمر الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة الذي عقد في جامعة «برنستون » سنة ١٩٥٢ PRINSTON UNIVERCITY (إن في بلاد الشرقين الأدنى والأوسط في هذه الأيام نهضة حضارية هي من ناحية جديدة، ومن ناحية أخرى بعث القديم إن نهضة الغرب المسيحي وحركة إحياء المعارف فيه قامت عمليات التفكير والجدل فيها على الأعمال الكلاسيكية والوثنية).

وفي إيران [1]: قام الصفويون والحكم البهلوي بتوهين العلاقة مع العالم الاسلامي فأنشأ الحكم البهلوي أكاديمية للتخلص من المفردات العربية في الفارسية، واكتشفت الأكاديمية مجد إيران القديمة، وبزغ مذهب زرداشت من جديد واحتل مكانا مرموقاً في بلاد السبع والشمس، وبدأت العمارات الجديدة تبنى على الطراز الأخميني القديم، وأقام الشاه محمد رضا بهلوي احتفالاً بمناسبة مرور (٢٥) قرنا على كورش صانع الأمبراطورية الفارسية، وثارت في ايران قوميات أخرى مثل : البلوش ، الأكراد والعرب .

وفي العراق: ثارت النعرات، فنادى بعضهم بالقومية العربية ونادى الأكراد بقوميتهم الكردية، والأتراك بالتركية، وثارت الدعوات الأشورية والكلدانية.

وفي الهند: تأججت نار العصبية الهندية، وأصبح الهنود يفخرون بالهندية، و يرون الانقطاع عن ماء زمزم في مكة إلى نهر

(١) مجموعة أعلام الشعر/ للعقاد ص ٣٦٨.

(٢) الاسلام والحضارة الغربية ص ١٥٢ نقلاً عن الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة ص ٣٢٩.

(جنجا)، ويتغنون بأبطال الهندوس (بهيم أرجن، رام ها)[1] .

وأصبحوا ينظرون إلى الفتح العربي أنه استعمار واستعباد واحتلال الغريب لأرض الوطن، وهذا الذي يفخر به المسلمون، ، جعل المسلمين ينادون بقيام دولة يعيشون فيها حياة اسلامية، وبفكر اسلامي، تكون فيها جنسية المسلم في عقيدته ودينه واسلامه.

وقد قال إقبال يخاطب المسلم - حيث كان-[2] :

(لا تقس أمم الغرب على أمتك، فإن أمة الرسول الهاشمي ﴿ﷺ﴾ فريدة في تركيبها، أولئك إنما يعتقدون باجتماعهم على الو والنسل، ولكن انما يستحكم اجتماعك أيها المسلم بقوة الدين).

وفي الأردن وفلسطين: ارتفعت الأصوات بالتغني بالأمجاد القبلية القديمة وقامت النزاعات بين قبائل الشمال والجنوب في شد الأردن وبين الفلسطينيين وبين أبناء شرق الأردن، وأصبحنا نسمع مؤاب، فيلادلفيا، عمون.

فمزقنا العـدو ولا جهاد ... وشردنا الطغاة ولا عدالة

وباتت أمة الاسلام حيرى ... وبات رعاتها في شر حالة

وهم الجمع ثوب أو رغيف ... وصك من رصيد أو حوالة

مؤامرة يدبرها يهـود ... ويرعاها عميل لا أبالـه[3]

لقد صدق فينا قول رب العزة (**إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين**)[4] .

(**ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى**)[5] .

وصدق رسول الله ﴿ﷺ﴾ (**بعثت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الصغار والذلة على خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**)[6] .

- وفي الحديث الصحيح [7] الذي رواه ابن ماجة والحاكم عن ابن عمر مرفوعاً (**كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين ع رسول الله ﴿ﷺ﴾ فأقبل علينا رسول الله ﴿ﷺ﴾ بوجهه فقال: يا معشر المهاجرين! خمس خصال أعوذ بالله أن تدركوهن :**

١- ما ظهرت الفاحشة في قوم قط حتى أعلنوا بها الا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا.

٢ - ولا نقص قوم المكيال إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان.

٣ - وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا.

٤ - ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم.

٥ - وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل بأسهم بينهم شديداً .

فنحن أمة خفرنا العهد مع الله فسلط علينا عدونا من كل جهة، وتداعت علينا الأمم كما تداعت الأكلة على قصعتها.

ونحن أمة ترك حكامنا كتاب الله وتاجروا بالغثاء من أفكار الغرب والشرق فجعل بأسنا بيننا شديداً. وصدق الله العظيم (**و الظالمين لفي شقاق بعيد**) [8].

يقول سيدنا علي رضي الله عنه (ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع بلاء إلا بتوبة).

وقال الحسن البصري (بلغنا أنه ليس أحد يصيبه خدش عود ولا نكبة قدم ولا خلجان عرق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر) [9] .

لقد ذقنا مرارة بعدنا عن كتاب الله، وتجرعنا آلام تنكبنا لطريق الله، وحصدنا ما زرعنا من بذور القومية ثمار القطيعه والتم

---

(١) انظر كتاب العرب والاسلام للندوي.

(٢) انظر كتاب العرب والاسلام للندوي.

(٣) للشاعر يوسف العظم.

(٤) المجادلة: ٢٠.

(٥) طه : ١٢٤.

(٦) حديث صحيح رواه أحمد.

(٧) سنن ابن ماجة / كتاب الفتن ٢ / ١٣٣٢، جاء في الزوائد: هذا حديث صالح للعمل به وقد اختلفوا في ابن أبي مالك، وأورده الدهلوي في حاشيته على بلوغ المرام عند باب الاست

(٨) الحج / ٥٣.

(٩) تفسير ابن كثير ٤/٣١٤.

والضياع والخذلان والخسران **(أفلا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون)** (١) .

لقد آن لنا أن نرجع إلى الله ، وننبذ من أيدينا كل أوضار الجاهلية، وندعو أنفسنا بالعودة إلى طريق السعادة **(فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)** (٢) .

إما الله أو الفناء، إما الإسلام أو الدمار .

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.